رائحة الخطو الثقيل

ابراهيم صموئيل

قصص

٧٩

رائحة الخطو الثقيل

* رائحة الخطو الثقيل
* ابراهيم صموئيل
* الطبعة الأولى : آب ١٩٨٨
* الطبعة الثانية : كانون الثاني ١٩٩٠
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* دار الجندي للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ ص.ب : ١٠٥٣٠ ـ هـ : ٤٢١٢٥٤

الغلاف للفنان :
يوسف عبد لكي

معن عبد الكريم الزكار

ابراهيم صموئيل

رائحة الخطو الثقيل

قصص

الى الثلاثي :

رام

القضية

ممدوح عدوان

رجل يحمل قضية ، أو رجل يدافع عن قضية . يغامر ، ويضحي ، من أجلها . يعيش حياة الملاحقة والتخفي . ثم يُقبض عليه ويدخل السجن . يواجه ما يواجهه السجناء السياسيون عادة . يقضي مدة ما ثم يخرج فيكتشف انه كان يحمل قضية ، وفي هذه التجربة اكتشف « القضية » .

ما يلفت الانتباه في هذه المجموعة من القصص القصيرة التي تنزف ، بفعل السياسة ، انها تخلو من كلمة سياسية واحدة . انها ، ايضاً ، خالية من مشاهد التحقيق والتعذيب والضعف ، او البطولة ، أمامها .

ربما لهذا أثارتني المجموعة ودفعتني للكتابة عنها .

هناك فخ وقع فيه كتاب كثيرون . وهذا الفخ هو مقولة ان الكاتب شاهد عصره . هذه المقولة الصحيحة تحولت الى فخ من خلال سوء فهمها وسوء التعامل معها . فكلمة « شاهد » أوحت للكثيرين بجو المحكمة وبضرورة الالتزام بقسم « والله العظيم أقول الحق . . . . » وبالتالي فانهم حولوا الادب الى شهادة قضائية أدى ادعاءُ الحياد والموضعية والصدق فيها الى غياب الحياة (كما يحدث في المرافعات السياسية في « العقب الحديدية » لجاك لندن) .

بعد ان ترجمت كتاب « التعذيب عبر العصور » قررت كتابة شيء عن هذا الموضوع . ورجعت أقرأ ما كنت قد قرأته وما ارشدني الاخرون الى قراءته حول التعذيب وآثاره ونتائجه وأسبابه ، وقرأت ، بشكل خاص ، في الادب وبعض الابحاث النفسية والاجتماعية .

ولان العالم حاشد بالقمع والعنف فان التجارب التي سجلت كانت كثيرة ومريعة . ولكنني بين حين وآخر التقي بمن خاض تجربة شخصية فأكتشف

ان الواقع اكثر شناعة وترويعاً من تلك الكتابات . واذا كانت الكتابات قد استطاعت حمل شهادة الفضيحة عن الحد الاقصى الذي يمكن ان يصل الانسان اليه في وحشيته أو في صموده الا ان معظمها أهمل ، من خلال تصوير ضراوة المعركة بين السجين والسجان ، ان يحاول تقديم شيء من الحياة التي يدافع عنها السجين او يخسرها . . أي انه أهمل « القضية » .

ذات يوم سمعت عبد الرحمن منيف ينصح كاتباً « متخرجاً » من السجن . وقد قال له : ها أنت قد خضت تجربة وعانيت ودفعت الثمن . اهدأ الآن . وسيطر على توترك وردود أفعالك . واكتب أدباً .

ابراهيم صموئيل لم يسمع نصيحة عبد الرحمن منيف لكنه استمع الى نصيحة قلبه . وربما كان قلبه هو الذي اكتشف « القضية » .

ان المناضل السياسي يحمل قضيته شعاراتٍ وعناوين . ولذا فهي قضية عامة : الوصول الى الجماهير ، تحريك الجماهير ، توعية الجماهير ، البحث عن حل لمشكلة الجموع ، البحث عن اثر الانحراف السياسي على الشعب . . . الخ .

أما « القضية » ـ والتي يتعامل معها ابراهيم صموئيل بعد التجربة في قصصه كلها ـ فتبدو خاصة وشخصية . انها تفاصيل من الحياة . ولانها تفاصيل صغيرة وخاصة وشخصية فإنها اكثر إنسانية من الشعار السياسي . فهي ، حتى حين تغرق في الخصوصية والشخصية ، تصبح أكثر شمولية لانها تشبهنا . وتصبح أيضاً اكثر تأثيراً لانها تُدخلنا من باب القلب ، سيد الحياة ، بينما يُدخلنا الشعار السياسي من باب العقل (قاتل الادب) .

والنضال السياسي فانه يهدف الى ما هو أبعد من السياسة . لكن فقر حياتنا أنسانا ذلك الهدف البعيد . فظننا ان الهدف هو فقط تحقيق الشبع والكفاية والمساواة والحرية . ونسينا ان هذه الامور ليست سوى الخطوة الاولى نحو تحقيق انسانيتنا : اي ان نصبح بشراً حقيقيين قادرين على تلمس جمال الحياة والتعامل معه ومجاراة الحياة في ابداعها ؛ فنصبح آباء أفضل وأبناء أفضل وعشاقاً أفضل ومبدعين أفضل .

سئل طفل فلسطيني في الارض المحتلة : لماذا تكره الاسرائيليين ؟

فقال : لانهم لا يسمحون لي ان ألعب بالكره هنا . وأشار الى ملعب قريب في مدرسة . وهناك كان الاطفال اليهود يلعبون ولا يسمحون للاطفال العرب باللعب .

اعتقد ان من الممكن الدخول الى اشكالية القضية الفلسطينية من اجابة هذا الطفل .

ان حياتنا جحيم .

يكفي انها تجبر شابة ، تعلم الصغار ، على التفكير في سرقتهم أمام عدم قدرة الدخل على سد الحاجات الضرورية (كما في قصة « ليّا ») .

وفي حياة التخفي التي يعيشها البطل (والذي لم نعرف ما هي قضيته السياسية لحسن الحظ) يظل الكاتب متشبثاً بهذه التفاصيل لانها هي الحياة . كان يمكن لشخص آخر ان يحكي عن المهارة في الهرب وعن البيوت السرية والمداهمات . ولكن ابراهيم صموئيل يحكي عن محاولة الهارب الالتقاء بالفتاة التي يحبها . وبعد ترتيبات مرهقة للاعصاب وارتماء ظلال الخوف تفشل المحاولة (رائحة الخطو الثقيل) وفي قصة « المقبرة » تنجح المحاولة فيتم لقاء جميل صغير في مقبرة .

ليست المسألة ، اذا ، توزيع منشور او إلقاء قنبلة أو اقتحام مكان . . ليست بطولة أو انجازاً . انها محاولة اللقاء بحبيب . فهل يستحق الامر هذا كله ؟ هل تستحق « إيثاكا » رحلة « أوليس » كلها ؟ نعم ، يقول كافافي ، « إيثاكا أعطتك الرحلة الرائعة . . ولولاها لما انطلقت مرتحلاً » .

بعد حياة المطادرة هناك حياة السجن التي نراها ، هي الاخرى ، من خلال قصتين . والقصتان تتحدثان عن زيارتين تقوم بهما زوجة السجين لزوجها .

الزيارة الاولى تحكي عن اللقاء الاول الذي يعوّل البطل عليه ، اضافة الى كل شيء ، بأن يساعده على رد جميل زملائه الذين تكاتفوا معه في السجن مادياً ومعنوياً . ها هي زيارته الاولى . وبالتالي ها هو شيء ما

سيأتيه من الخارج لكي يتقاسمه مع زملائه الذين تقاسموا معه كل شيء . وتعطيه قطعة نقدية من فئة الخمسين ليرة . وفيما هو يتمعن في القطعة الورقية ويبحث عن رائحة حبيبته وآثار اصابعها فيها يكتشف انها قد كتبَت له بخط دقيق لا يكاد يرى كلمة حب !

وتتحول القطعة النقدية الى شحنة عاطفية : رسالة شخصية لاحقٌ لأحد فيها . في أحرف الكلمة صورة حبيبته وأشواقها وأسرارها . . ولكن الحياة ، والحياة في السجن خاصة ، أقسى من ان تسمح بالتعامل بهذا الحنان . (العيون المشرعة) في وجوه زملائه لا تترك خياراً : يجب غسل القطعة النقدية من عاطفيتها ، وتجاهل الكتابة عليها ، والتعامل مع قيمتها الشرائية فقط .

وفي الزيارة الثانية ، القصة الثانية ، يكون مع الزوجة ابنهما . يأتي الاب معبأ بالشوق والحب للصغير الى درجة انه يكاد ان ينسى زوجته . شحنة اللقاء مكرسة لمحاولة التماسّ مع الصغير الذي بدأ يتعرف على العالم الخارجي في غياب ابيه . يمد الاب عينيه وأشواقه ورغبته في الضم والشم والعناق ليقيم جسراً يوصله الى الطفل ولكن الطفل لا يعرف أباه ولا يهتم به ولا يستجيب لعواطفه . وقصر وقت الزيارة ، مع وجود الحاجز الشبكي ، لا يتيح المجال لتعميق المحاولة اكثر . ونكتشف ان الجدار الذي يفصلهما الان صار اكبر من ذلك الحاجز الشبكي الموجود في السجن . لقد حدث فصل قسري بين كائنين جميلين رائعين كان يجب ان يظلا معاً لكي تكون الحياة طبيعية . ومع ذلك يعود الاب مترعاً بسعادة فاجعة . يكفي انه رأى الصغير وتحدث اليه ولو من جانب واحد .

وهذا ينقلنا فوراً الى القصة الاخرى (الرجل الذي لم يعد أباً لابنه) حيث يكون الطفل قد كبر قليلاً واكتشف كلمة الاب . . فدلته الام على صورة لابيه . وصار الصغير يتعامل مع الصورة على انها أبوه . . يحادثها ويأخذ منها النقود ويشكو لها ويلاعبها . وحين يخرج الاب الواقعي من السجن يكون شيئاً آخر مختلفاً عن الصورة . يكون رجلاً قد انكسر

وتغضن وصلع . لم يعد ذلك الشاب الجميل المشرق الذي كان الصغير يتعامل معه ، فيرفضه الصغير مرة اخرى .

ربما كانت قوة هذه اللقطة في تكثيفها الخارق . وربما كان ما ساعدها للتحدث بهذا الشكل المؤثر عن التغيرات التي طرأت على الاب في السجن هو عبورها من خلال الطفل : الحياة بدّلت أباه بصورة . والصورة هي ما كان عليه .

لعل الام نفسها قد أحست بهذا الفارق بين الحبيب السابق وبين الزوج الخارج من السجن . لكن طرح الموضوع من خلالها سيعرضنا الى فتوى أخلاقية ، وسيجعلنا نطالبها بالتفهم . وسنقف على ابواب مأساة يتصارع فيها حقان مشروعان : (عاد أوليس الى ايثاكا فوجد بنلوبي عجوزاً . وبالمقابل عاد أوليس الذي انتظرته بنلوبي واذا به يعود عجوزاً) . . . ولكن كيف تناقش هذا الطفل ؟!

نحن في حاجة الى هذا الطفل في كل بيت لكي يدلنا ، دون ان يقصد ، الى ما فقدناه في تجاربنا المريرة .

نحن في حاجة اليه لكي نعرف قسوة الحياة حين يضعف بين أيديها ونحن لا نستطيع له شيئاً ولكي نعرف كيف يتحول الشيء الصغير الوديع الى عبء أثقل من الجبال .

ونحن في حاجة اليه لكي نكتشف جمال التفاصيل الصغيرة في حياته وحياتنا . . ولكن بعد ان يموت .

هذا الطفل الجميل . . هذا الطفل الضرورة . . هذا الطفل العبء . هذا الطفل المرآة .

هذا الطفل الذي لم يتعلم المجاملة و « تقدير الظروف » بعد والذي يمكن ان يحرجنا حين ينكرنا او حين يطالب بأبسط الحاجات الضرورية للبشر والتي تعودنا تجاوزها . . هذا الطفل هو الذي يعرينا حين يصرخ : ولكن الملك عارٍ . فيعري الحياة من مكياجها الرديء ويدلنا على القسوة الحقيقية التي فيها وعلى اننا لم نكن نحيا حياة البشر .

ما الذي يفعله بنا أدب كهذا ؟

باختصار : يذكرنا بانسانيتنا . وهذا إنجاز عظيم . كأننا كنا مشدودين الى مباراة حامية في كرة القدم . عقولنا وعيوننا ، كلها ، مركزة على أرجل اللاعبين والكرة والمرمى والاهداف ، وبعد ان تنتهي المباراة نحس انه لم تعد لنا علاقة بالملعب . ثم يأتي ابراهيم صموئيل ليتفقد ارض الملعب ويدلنا على الزهور التي انسحقت ، والزرع الذي اختنق في الارض التي صارت ملعباً . . وليذكرنا بان الساعة قد صارت كذا واننا قد تأخرنا كثيراً على حياتنا . . وبأننا ، ونحن جالسون ، قد سُرِقنا : سنعود الى بيوتنا دون احلام ودون آمال ودون أوهام.

ما يتفقده الادب هنا ويدلنا عليه وعلى ما خسرناه هو انسانيتنا الضائعة . انسانيتنا المتمثلة في علاقاتنا الصغيرة وأوجاعنا الصغيرة وهمومنا الصغيرة وأحلامنا الصغيرة : البسمة التي أشرقت على وجوهنا ذات مرة . والدمعة التي افلتت من عيوننا ذات مرة . . وقطرة الدم التي قذفها سعالنا ذات مرة .

ما الذي تريد تحقيقه في الحياة ؟

هناك جوابان .

الاول : تحقيق الثورة الاشتراكية والعدالة في العالم والتخلص من كافة انواع الاستبداد والاستغلال .

والثاني : ان اكون انساناً .

هناك من يطاردون (موبي ديك) : هناك جلجامش الذي يبحث عن الخلود . . . ولكن هناك أوليس الذي رفض الخلود ببساطة لانه يُفقد الحياة معناها ومتعتها اذ يجردها من الخوف ومن الاحساس بالخطر .

بعد أن قرأت هذه المجموعة ازداد احساسي بالخطر والخوف على أشياء كثيرة .

وتلك هي القضية !

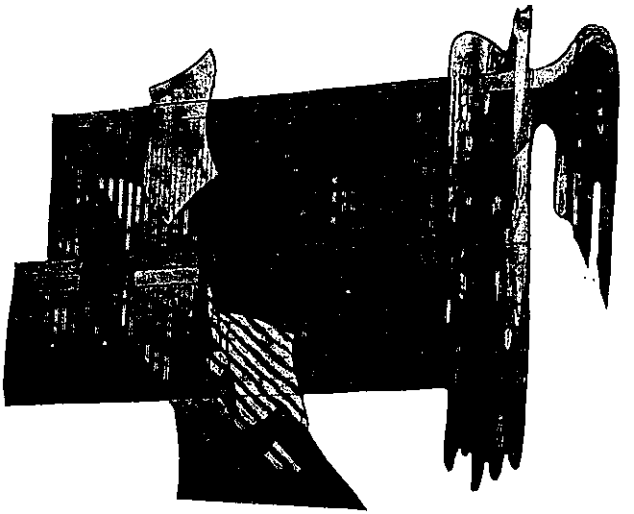

الزيارة

صاح السجان خارج المهجع :

ـ سعد عبد الكريم . . . زيارة .

فقفز قلبي من النافذة ، وتبعته من باب المهجع ، الذي فتحتْ قفله القديم يدُ السجان الكسولة المعتادة ، ولحقتني توصيات السجناء الاربعين متداخلة ، فرحة :

ـ سلِّم ابو خلدون . . سلِّم

ـ لا تنس طشت الغسيل ، هذه المرة !

ـ بوِّس الصغير يا ابو خلدون . . .

خرجت نحو الممر الضيق ، الذي يفصل المهاجع عن باحة التنفس ، فأوقفني السجان آمراً : انتظر . ومضى يتأكد خلو الباحة من السجناء .

ليست الزيارة الاولى لي . . فقد مضى على مغادرتي المعتقل اكثر من عامين ، تخللتها بعد تسعة اشهر من ايداعي السجن زيارات عدة . . غير ان هذه الزيارة ، المنتظرة ، كانت تحمل نكهة خاصة ، ومفاجأة جديدة ، اتفقتُ عليها مع زوجتي في اخر زيارة لها .

عاد السجان يحمل لهجته الآمرة :

ـ تحرك بسرعة .

تحركت ، دون اسراع ، نحو باحة التنفس . قلبي يوغل في الاضطراب . لاول مرة سأرى « خلدون » . يوم اعتقلت ، كان بطنها متكوراً بوضوح وهابطاً قليلا . ولدتْ ، وكبر خلدون . . ولم

أره . حاولتْ مرارا ـ في زياراتها ـ اقناعي باحضاره معها ، لكني امتنعتُ باصرار . في الزيارة الاخيرة ، خرَّ امتناعي فقبلت .

قطعت ، خلف السجان ، باحة التنفس ، وهبطت العتبة الاولى في الدرج النازل من الطابق العلوي للسجن . تدحرج قلبي ، واربكني اختلال تنفسي . كأنها الزيارة الاولى ! ما شكله يا ترى ؟ هل يشبهني أم يشبه امه ؟ أيناديني : بابا لحظة يراني ؟ المشكلة ، ان لاوقت للتعارف هنا « فالاكل بالميزان والزيارة بالثوان » ليتني ما قبلت زيارته !

انسحب الدرج خلفي ، وتركني السجان منعطفا نحو غرفة مجاورة ، فواجهتني شباك الحديد المعدة للزائرين .

لم استطع مرة الفوز بلقاء في غرفة الزيارات الخاصة . لقاء الغرفة للقلة المدعومين ، وانا واحد من الاكثرية التي تنحصر زياراتها خلف بابين من القضبان ، يقف بينهما شرطيان يجمركان الحديث الداخل والخارج !

خطوتُ نحو قضبان الباب الاول فخرجتْ ، من الغرفة خلف قضبان الباب الثاني ، زوجتي ، تمسك يد طفل صغير ، ساحر ، يغرق رأسه بقبعة حمراء تطاولت مقدمتها ، ويخرج ساقيه البضتين من بنطال قصير ابيض ، مزنر بحزام تهدل من جنبه مسدس صغير ، يخطو مقصرًا عن امه قليلا ، مندهشاً من جعجعة الاصوات المتزاحمة ، المتبادلة بين السجناء واهاليهم ، يوزع ، دون تركيز ، نظرات حائرة وجلة .

قرفصتُ ، حين دنا ، وناديت :

ـ بابا . . خلدون بابا .

فاجأه النداء ، فالتفتَ مستغرباً ، الَّي ! دائرتا عينيه ،

الصغيرتين ، السوداوين تنغلقان على تساؤلات لا املك اجاباتها .
مددت يدي ، من خلل القضبان بقطعة بسكوت احضرتها معي :
ـ خلدون ، خذ . . انا بابا !
لبرهة ظل واجماً . ثم ارتد ، حرناً، خلف امه . شدَّ ثوبها ، واطلَّ بوجهه . حدقتُ فيه ، وابتسمت . . فغطى وجهه محتجاً . انحنت امه ، تحاول معه ، فالتصق بها اكثر مراوحا في مكانه .
قالت امه :
ـ دعه يا سعد الان . . واسمعني
تجاهلت طلبها ، وتابعت المحاولة ، صاحت ، ، برفق ، مؤنبة :
ـ خلدون . . ! سلِّم على البابا الحباب !
صاح صوته المطمور في ثوبها :
ـ ما بدي . .
ـ خلدون حبيبي هادا بابا !
ـ ما بدي . . . ما بدي . . بدي غيرو !
ضحكتْ امه، وضحكتُ معها. من أين لنا بـ«غيري»!؟
كنت ما أزال مقرفصا أتأمل حائراً خلدون المختبىء وراء نصف امه ، الذي بدا مقطَّعا بقضبان الحديد ، حين فكرتُ باستخدام سهمي الاخير لاصطياد ودِّ هذا « الازعر » . ندهتُ وانا اهمُّ بالوقوف : خلدون . . فلما لم يجب ، تابعتُ لعبتي :
ـ طيب انا زعلان منك يا خلدون . . انا رايح
واستدرتُ ، أمثِّل المغادرة . خطوت خطوتين ، ثلاث . . . والتفت، لم اره ! كان ما يزال يتبرَّم خلف امه . صاحت، لحظتها ، زوجتي مستاءة من اللعبة :
ـ سعد! دع خلدون! انتهى الوقت. عندي كلام هام أقوله لك!

فطنتُ ، فاقتربتُ متلهفاً :

ـ هيا قولي . . ما هو ؟

صاح السجان الواقف قرب الشبك :

ـ عبد الكريم . . انتهت الزيارة .

بوغتُّ بفرار الوقت ، فرجوته قائلا :

ـ لحظة . . لحظة .

علا صوته رمادياً ، ثقيلاً ، ناهياً :

ـ عبد الكريم ، اقول لك انتهت الزيارة . . فهمت ؟!

فهمت. ادركت تهديده بقطع زياراتي القادمة ، ففهمت . انسحبتُ للخلف ، فاستلقى الدرج الحجري تحت قدميّ . صعدت ، والسجان خلفي . قطعت باحة التنفس ، مصغياً الى نشيد الاقدام الاربعة في الباحة الخالية . وكدتُ ادلف الى المهجع ، لحظة لمع في ذهني السؤال :

ـ ما الذي كانت تريد أن تقوله لي ؟!

ايار/١٩٨٦

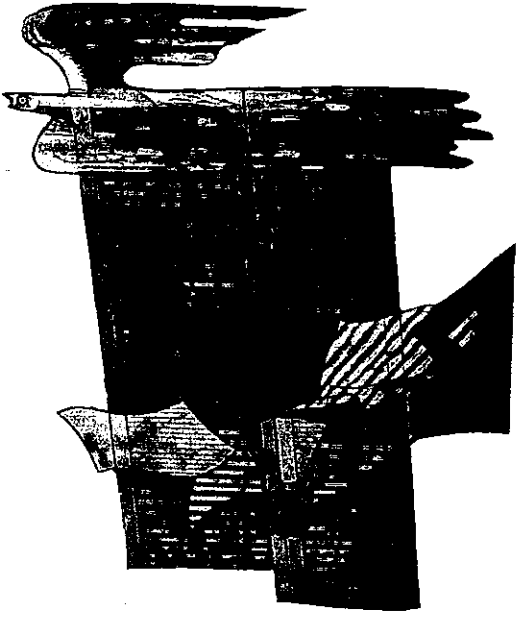

المقبرة

يزعق منادي الموت « ترحموا عليه يرحمنا ويرحمكم الله . . . سامحوه يسمح عنا وعنكم الله » فيكسر زعيقه ، الخارج من مكبر الصوت ، هدأة زنزانتي وتتلقفه اذناي اللتان كبرتا ، في ضيق الزانزانة وفراغها ، وباتتا مستقراً لاية نأمة تندّ عن قبو المعتقل ، أو تأتي من خارجه !

ولضيق الـزنزانة وفراغها ، رحت اقطّع الوقت : مرة ، بانتظار تكبير المؤذن ، في الجامع قرب المعتقل ، مرات خمسا . ومرة، بترقب نداءات بائع البوظة ، الذي يصادف مجيئه بعد وجبة الغداء تماما . ومرة ، بالتنصت على مشاجرات النسوة من السكان المجاورين ، التي كانت تصلني ، غامضة ، كل مساء .

وبلعبتي هذه ، التي ابتكرتْها حاجتي المفتقدة للآخرين ، صرت الهو ، مبعدا عني وحدتي التي اضنتني بخفافيش الوساوس والاوهام .

غير ان زعيق المنادي ، هذه المرة ـ والذي اتخيله يركن جوار الجثة في سيارة دفن الموتى ـ قد طيَّر الخفاش من المقبرة ليحط فوق رأسي !

ومع الخفاش ، جاءت « عناد » الي ، فضحكت . دخلتْ ، هي الاخـرى ، زنزانتي وحطت فوق رأسي ! تذكرت خوفها ، ودهشة عينيها ، وحيرتها . . فضحكت .

لا ، لم تمت عنـاد ، ولا مت انـا . مازلنـا احيـاء ، نعم ، مبعـدين . . ولكنّا احيـاء . لم يتغـير شيء ، قبل ان اعتقل ، كنا مبعدين ايضا ، احياء مبعدين ! هي في منزلها بانتظاري ، وانا متخف

في حارات المدينة ، في شوق اليها ، مطارد من اشباح ملأت المدينة ، تجوب الشوارع وتداهم البيوت . . . . بحثا عمن انا منهم ! .

تخفيت ، والتخفي يخلق الشوق ، فاشتقت ، اشعل اشجار قلبي ، فاحترقت في غابته . فكرت : اراها ! لمرة واحدة فقط ، اراها . اضمها ، ابوح لها بكل شيء ، وأتوارى . لا بد ان اراها . لست حجراً . يوم ابلغوني ضرورة التخفي ، لم اتمكن من رؤيتها . امر التخفي كان فوريا ، فطرت من غرفتي ، وظلت في جمرا يحرقني . نعم ، نبّهني الرفاق ان احاذر في تحركاتي ولقاءاتي . . واكّدوا عليّ - حين اشتدت حملة الاعتقالات - ان امتنع عن التنقل ، دون ترتيبات تصلني ، مسبقا ، بالبريد السري . . . لكنني لست حجراً . تعميمات الرفاق لا تأخذ الاشواق في حساباتها ، وانا فاض بي الشوق ، طفح عن قلبي وملأني . لا يعرف الشوق الا من يكابده ، هم لا يعرفونه ، وانا اكابده !

رسوت ، بعد طول تردد ، على برّ القرار . وضعت ترتيباتي الخاصة واقنعت نصفي المتردد : انت ان رأيتها ، متّ ، وان لم ترها مت ، فرها ، ومت . فاقتنع ، ورسوت على برّ القرار .

رأيتها ولم امت !

كان القمر ، في تلك الليلة ، مبعدا من السماء ، والبيوت دفنت انوارها ، وخلت الحارة الضيقة ، خلف منزل عناد ، سوى من العتمة والصمت وبعض القطط .

حين التقيتها ، سارعتْ بالقول :

- كيف تخاطر بالمجيء يا سعد ، وانت الحذر دوما ؟!

- لا ادري ! قلت أراك مرة ، فقد اعتقل . . واذا حدث ، فلسنوات طويلة ، كما تعلمين .

التصقت بي ، وتلفتت يمنة ويسره ، بادرتها :

ـ عناد . . . وقوفنا هنا خطر . اتذهبين معي ؟

اجابت بلهفة :

ـ نعم . ثم استدركت : الى اين ؟

ـ أسألك ، اتذهبين معي ؟!

ـ نعم ، لكن الى اين ؟!

همست ، مشيرا بيدي :

ـ هناك ، الى المقبرة .

قرصتها فكرتي :

ـ المقبرة يا سعد !!

ماءت قطة قربنا ، فخدشت أمان السكون .

ـ عناد ! لا وقت لدينا نضيعه . .

ـ اعرف يا سعد . . ولكن غير المقبرة ! غرفتك مثلا . .

ـ تقولين غرفتي ؟ عجيب ! ملاحق ، واذهب الى غرفتي !

ـ اقصد . . منزل احد اصدقائك ، معارفك ، ليس من المعقول ان نذهب الى المقبرة !

علت اصوات قطتين تتشاجران ، فضقت بالوقوف .

ـ عناد ، افهميني . ليس من امان مثل المقبرة ، لدي الكثير لاقوله لك . الوقت يمر . كل البيوت والطرقات « مشموسة » .

ـ يستحيل ، يا سعد ، يستحيل .

صرخت مرغما :

ـ ما المستحيل ؟! اقول لك لا استطيع الحديث معك هنا ! اتفهمين ؟

لا ادري ان فهمت ، غير اني قسوت . احسست اني قسوت ، أو

ربما شعرتُ بالحصار ، فصرخت في وجهها . انا نفسي غير مقتنع ، تماما ، بالذهاب الى المقبرة . . لكن ماذا افعل ؟ كل الاماكن الان ، تخفي خطرا .

لبثنا ، لحظات ، صامتين . أثقل الصمت صدري . نظرت الى وجهها ، كان حزينا دهشا ، خائفا ، ومترددا . حاولت ان اعتذر :

ـ عناد . . . .

ـ لا تقل شيئا . قاطعتني وابتسمت ، ثم اضافت : لنذهب الان . . . ولكن اقسم انك مجنون .

قفزت قطة تعدو ، وعدا خلفها آخر ، فعمَّ السكون الأمين .

ـ وأنا اقسم ، أيضاً .

كانت المقبرة تبعد عن الحارة الضيقة ، خلف منزل عناد ، مسافة حارتين وشارع قصير . نبّهتها ، قبل ان ننطلق : « كوني حذرة . لو حدث وداهموني في الطريق ، تابعي سيرك دون توقف . لا تضطربي ، ولا تعيريني انتباها . لن يوفروك ابدا لو اكتشفوا علاقة بيننا » ثم انطلقت . باعدتُ بيني وبينها ، سرت امامها خطوات ومشت اثري . مضيت دون ان التفت اليها . وقع اقدامها ، ونحنحاتها أحيانا ، كانت تنبئني انها تتبعني .

وصلنا المقبرة بسلام . كان بابها مغلقا . انعطفتُ يمينا ، ادور حول المقبرة . في جدارها الخلفي ثغرة تسمح بتسللنا . رحت اتذكر : « كم عفرتنا ، انا وحسن ومحمود وعبد اللطيف ، حين كنا صغارا ، في هذه المقبرة . لم نخش الدخول اليها ، واللعب فيها . . كانت مأوى لشقاوتنا ، واحلامنا ، واسرارنا . اذكر ، حين كنت الطأ خلف قبر ناء ، في لعبة الابطال والحرامية ، تداهمني رغبة ان اختفي فتاة ، اية فتاة ، خلف القبر بعيدا عن اعين الناس ، واشبعها قبلا

وعناقا حتى مطلع الفجر . . فأظل في عناق ، اسرح مع اللذة ، ناسيا اللعبة وابطالها وحراميها ، وانا لاطيء مع فتاة احلامي ، خلف القبر النائي . . ثم بعد برهة ، انتبه الى ان اصدقائي غادروا المقبرة ، بعد ان جهدوا ـ كما اعلم في اليوم التالي ـ في البحث عني ، وتركوني وحيدا مع اشباح القبور ، البيضاء المنتشرة فأقفز راكضا ، والخوف يلاحقني » .

وصلت الثغـرة . تلفتّ ، رأيتهـا تقـترتب ، بتردد ، مني . . انحنيت ، وخـطوت داخـل الثغـرة . استـدرت ، فلاحت ساقاها ملفعتين بالثوب الوردي ، ، بينما اختفى نصفها الاعلى ، خلف جدار الثغرة العلوي .

مددت يدي :

ـ ادخلي . . هيا ، ادخلي .

امسكت يدي ، انحنت ، ودخلت .

وقفنا متجاورين . كفها ـ الصغيرة المرتعشة ـ تذوي داخل كفي . للحظات ، بقينا صامتين . عيناي ، الوجلتان ، تنتقلان من قبر الى قبر . كفها المرتعشة ، داخل كفي ، تزيد من اضطرابي .

كانت المقبرة كئيبة الى حد رهيب . سكونها ، موحش ومفزع . مجللة بالـظلام الأبكم ، ومـوشـاة بالقبـور الكلسيـة ، البيضـاء ، المتنـافـرة ، الممـددة ، بفوضى ، بعضها قرب بعض، تفصل بينها ممرات ، سوداء ، ضيقـة ، تتسـع لاقـدام اشباح الموت التي تظهر وتختفي ، بين لحظة واخرى .

كان العرق المتصبب على وجههي قد ابترد ، حين استدرت ـ دون ان انظر الى عناد ـ وقد فرغتُ ، سوى من سكون المقبرة . اتكأت بيـدي على الجـدار ، اخـرجت رأسي من الثغـرة وخطوت ، بساق

واحدة ، خارج المقبرة في حين ظلت الاخرى داخلها .

بغتة ، قفزت من عناد صيحة رعب رفيعة ، مكتومة ، نخرت عظامي : « سعـعـعد » .

تجمدت مكاني !

كانت المـدينـة خارج المقـبرة ، في تلك اللحظة ، كئيبة الى حد رهيب . سكونها موحش ومفزع . مجللة بالظلام الابكم ، وموشاة بالبيـوت الاسمنتيـة ، الكـالحـة ، المتنافرة الشاخصة ، بفوضى ، بعضها قرب بعض ، تفصل بينها ممرات ، سوداء ، ضيقة ، تتسع لاقدام الاشباح التي تجوب المدينة ، بحثاً عن المطاردين المتخفين ، فتظهر تارة وتغيب اخرى .

تموز / ١٩٨٦

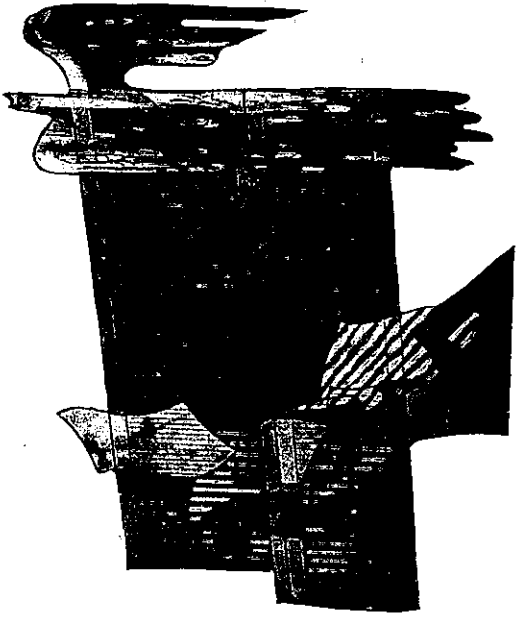

العيون المشرعة

كنا نهمُّ بالعودة الى القبو ـ بعد ان انتهى دورنا في المرحاض ـ حين ناداني السجان ، ومد الّي ورقة نقدية قائلا :

ـ خذ. خمسون ليرة ، حضرت زوجتك اليوم وارسلتها لك .

نترتُها ، وطرت باتجاه القبو .

ـ يا شباب . . . جاء الفرج !

صاح مجد باشاً :

ـ كم المبلغ ؟

رفعتها كصيد ثمين :

ـ خمسون . خمسون ليرة .

لم اتساءل كيف عرف مجد ان ما احمله هو مبلغ من المال . فالفرج ، في حصار القبو وتراكم العرق والدهون على اجسادنا ، كان يعني لنا ـ نحن نزلاء القبو العشرة ـ وصول اي مبلغ يتيح لنا شراء الصابون او سراويل جديدة عوضا عن تلك التي انتنت تحت الياتنا . ولطول الايام التي قضيناها دون حمام أو تغيير ملابس ، مذ أُخرجنا من الزنزانات وحشرنا في هذا المتكور تحت الدرج : القبو ، شاعت تسميتنا بـ« جماعة الريحة » ، بحيث صار السجانون ينادوننا بها :

ـ « تحركوا يا جماعة الريحة الى المرحاض . . »

ـ « هل ارتجت باب القبو على جماعة الريحة ؟ »

ـ « هات لي واحداً من جماعة الريحة ! »

ولسبب لا ندركه ، لم نكن نستاء من تسميتنا المبتكرة هذه ، بل كثيرًا ما كانت تثير ضحكنا ونحن نعبر الرواق بين صفين من السجانين يكتمون انفاسهم في ذهابنا وايابنا ، صارخين بطابورنا كي نسرع الخطو .

تركت نزلاء القبو ، الذين عمَّ الهرج بينهم وبشّت وجوههم ، وانزويتُ في ركن ، افتش عن انامل زوجتي ـ التي لا بد التصقت على الخمسين ليرة ـ . . . . رائحة حقيبتها ، أو ربما وجهها الذي اختفى خلف الدائرة أو قرب الصفر .

قلبت الورقة ، فذهلت !!

على المساحة الدائرية البيضاء ، قرب صورة القلعة تماما ، قرأت جملة ، كُتبتْ بخط اعرفه يقيناً : « من ام خلدون الى ابو خلدون الحبيب » ! هذا خطها ! خطها لا محالة . ليس حلما ابداً . من انحناءات الاحرف ، وانكسار الالف ، وتعرج النون . . عرفته ! من رفع « الاب » الذي طالما شاكستها ـ في رسائلها القديمة الي ـ على ضرورة جره . . عرفت خطها ! كانت هي ، وقد توزعت على احرف ، ودخلت قبوي !

بغتة اكفهر وجهي بعد قراءة جملتها . طفا الغم واغرق الفرج : كيف انفقها ؟! تبخرت رائحة العرق ، فجأة ، فلم اعد اشمها . وانجلى النتن ، فلا احس به . تلوَّن القبو بالفرح : ليست خمسين ليرة لبضعة سراويل ، هي خمسون جدولاً لقلبي . . فكيف اهدرها ؟! .

للحال ، واريتها جيبي ، فأحسست بالخديعة ! سامر لم يتردد ، يوم اعتقلنا ، عن انفاق المائة ليرة التي كانت معه ! اخرجتها ، مذعوراً ، من جيبي ، وعدت فقرأت « من ام خلدون الى . . . . »

انا ايضا لا اتردد . لكنها رسالتها الي ! لاول مرة بعد زمن طويل من التشتت ، تجتمع العائلة الصغيرة معا : خلدون وامه وانا ، فكيف ابعثرها ؟! .

« لا وقت للعواطف يا ابا خلدون » هكذا سيقول عبد الحميد لو علم . حقه . فعلا لا وقت للعواطف ! هو لم يقصّر ابدا ، فهل اتلكأ انا ؟! قبل ساعة كنت اكثرهم تذمرا من رائحتنا العفنة واتساخ ثيابنا ! ولكن . . هل ضاقت الدنيا الى هذا الحد ؟ يعني، خمسون ليرة لن تفك اسرنا ، وحتى لو . . . فهم لن يقبلوا . نعم. اعرفهم . لن يقبلوا ، لو علموا ، التفريط بها !

لذا ، ساخبرهم . نعم ، سأخبرهم ، وينتهي الامر . ثم . . . ثم ما يدريني ان تصل يد سكير ابله ، يولجها بين ثديي غانية رخيصة ، مقابل دقائق على طرف سرير عفن ؟! يعني لولا كتبت ام خلدون لما فكرت في الاحتفاظ بها . غير انها كتبت . كتبت ووصلتني . نعم سأخبرهم . . سأخبرهم .

نهضت من زاويتي ، فداهمني لغطهم . كانوا يتشاورون فيمن سيقرع باب القبو ويطلب من السجان السراويل .

ناديتهم ، مختنقاً بصوتي :

ـ يا شباب . . . .

التفتت العيون نحوي ، فأفزعتني !

لا ادري لم فزعت . ولا فهمت ما باحت به . . غير اني ـ في لحظة ـ لمحتها كلها : بعضها كان مشرعاً ، وبعضها مواربا ، وبعضها غائما . ثم وجدتني ـ دونما وعي ـ انخرط معهم بحثا عمن يقرع الباب .

ايلول / ١٩٨٦

الرجل الذي لم يعد أبا

هل حدث معـك أن اكتشفت، فجأة ، انك لست أباً لابنك ؟ وقبـل ان تتسرع في الجـواب ، أود الايـضـاح بانني لا اقصـد بـ« الاكتشاف » ما يحدث في الافلام المصرية ، حين ينادي البطل ابنه الشاب ، وهو على فراش الموت ، فيبكي وينوح ويندب امامه ، ثم يخبره بتراجيدية شكسبيرية بأنه « ليس أباه . . بل امه » !! لا اقصد هذا بالطبع . . بل أعني هل حدث معك ما حدث مع « نذير رحيم العمر » الذي اكتشف ، فجأة ، انه لم يعد ـ بعد ان كان ـ أبا لابنه ؟!

أقول : « بعد ان كان » . . لانه فعلا كان أبا لابنه خالد ، وخالد هو ابن نذير واسمه ـ حتى كتابة هذه القصة ـ ما زال مسجّلا في دفتر العائلة هكذا : « خالد بن نذير رحيم العمر » نعم . . ومريم رحيم العمر ـ ابنة عم نذير قبل الزواج ـ هي زوجة نذير ، لم تتزوج أحداً قبله ، ولا تزوج هو غيرها . . يشهد بذلك دفتر عائلته الذي خلت صفحاته المخصصة للزوجات من اسم أي امرأة اخرى غير مريم .

الحاصل . . أظن ان الموضوع واضح لا لبس فيه . اعني تناسب وتسلسل القرابات في عائلة المواطن نذير رحيم العمر ، اللهم . . الا في هذه المشكلة الطارئة التي اعترضت حياة العائلة ، أو حياة نذير ، أو لنقـل بتحديد اكثر علاقة خالد بأبيه نذير ، حيث اكتشف هذا الاخير انه لم يعد أباً لابنه بعد ان كان . . كما اخبرتكم ذلك !

ولا أخفيكم ، بأن هذا الاكتشـاف ما كان ليثير مشكلة في حياة

نذير لو بقي ضمن **حدوده المعقولة** . . غير انه تجاوزها كثير ! بل هو وصل في الاونة الاخيرة الى درجة الفشل المروع والمحزن حقا ! هذا الفشل الذي خلق مشكلة ما كانت لتخطر على بال نذير أو أي من اصحابه أو اقربائه . وكيف يمكن ان يخطر على بال احد أن رجلا مثل نذير يمكن ان يفشل في اقناع ابنه انه ابوه وان خالدا . . هه ، فطنت ! مازاد في تأزيم المشكلة اكتشاف خالد ، المفاجيء ايضا ، ان أباه ليس أباه . . أعني ان هذا « الرجل » الاصلع الذي لا قبعة على رأسة ولا لحية لذقنه ولا نظارات سوداء على عينيه ، ليس أباه !!

قد تقولون الآن : « بسيطة اذن . . فاختلاف الشكلين هو علة المشكلة » . أنا مثلكم ايضا ، ظننت كذلك في بادىء الامر . لكني عرفت فيما بعد ان نذيرا حاول كثيرا واستخدم الف اسلوب واسلوب ، صبر وتحايل وناور . . حتى انه ـ بعد ان عجز وكاد ييأس ـ التحى وتقبَّع وتنظَّر . . ولكن دون جدوى ! ظل خالد ينظر الى نذير مثلما يناديه : « عمو » وفي احسن الاحوال ، لفرحه بالهدايا ، كان يضيف كلمة : « الحباب » فيصير نذير : « **عمو الحباب** » ، أما ان يصبح : « بابا » كما تاق نذير وتحرَّق لسماعها . . . فعبثاً ! بل تصوروا ان خالداً لم « يخطىء » يوما ـ ولو لمرة واحدة ـ في مناداته : «بابا» كما كان ينادي اباه الذي في الصورة المعلقة على . . . هه ، صحيح ! نسيت مرة اخرى !! كيف لم اخبركم قصة الصورة وهي لب المشكلة ؟! اعني دورها في المشكلة أو بالاحرى ، دور مريم التي علقت الصورة على الجدار في غياب زوجها . فمريم هي اساس المشكلة ان جاز لي التحديد . على كلٍ . . كائنا من كان لب المشكلة أو اساسها أو سببها فلن احشر نفسي في تعيينه او تحديده . اترك ذلك لكم ، لاخبركم بان الصورة هي صورة عادية جدا . صورة مثل كل

الصور اخذها نذير ذات يوم حين كان مطلوبا ومتخفيا ، يظهر فيها متنكرا بقبعة ولحية ونظارات سوداء . ثم بعد زواجه من مريم كبّرها وركنها على ظهر الخزانة في جملة رسائل واوراق واشياء كثيرة خاصة به . نعم . . وظلت الصورة ـ كما تفيد مريم ـ مركونة هناك حتى جاء ليل ٢٥ آذار عام ١٩٧٩ وقاربت ساعته الواحدة . في تلك الليلة ، تقول مريم ، قُرع باب غرفتهم بعنف وتتابع ملح ـ وهو نفس القرع الذي بات شائعا في البلاد ـ فتح نذير الباب ليباغت بحوالى ستة او سبعة عناصر مسلحين ، داهموا الغرفة ، قلبوها فوقاني تحتاني ـ كما يقول نذير ـ ثم اخذوه مع بضع اوراق وصحف سرية وكتب ذات اغلفة حمراء ، تاركين مريم وبطنها المنتفخ (تقول مريم انها كانت في الشهر التاسع من الحمل والحادي عشر من الزواج) الذي راح يعلو ويهبط مع شهيق قلبها وزفيره . المهم ، مالنا بالطويل . . مضى نذير معهم تاركا زوجته واشياءه الخاصه وفي جملتها صورته تلك التي ساهمت ، فيما بعد ، في خلق مشكلته التي نتحدث عنها .

ولا شك ان ما حدث مع نذير في تلك الليلة ليس جديدا عليكم ـ فانتم تعرفونه لا بد من جيرانكم أو اقاربكم أو احد افراد اسرتكم ـ غير انني أود ان اضيف معلومة صغيرة ـ ربما كنتم تجهلونها عنه ـ وهي ان غياب نذير عن البيت لم يكن خمس دقائق ، كما اقسم رئيس العناصر بشرفه ، بل غاب اكثر من ذلك . . تحديدا ، ثلاث سنوات .

بُعيد غرق نذير في الظلمة معتكباً بالعناصر المسلحة ، ركضت مريم ودخلت البيت ، بعد ان شيعته حتى الباب الخارجي ، وكأنها صحت مما يشبه الكابوس ، طلعت على كرسي خشبي ، سحبت من بين كدسات الاوراق والكتب والمجلات صورة نذير التي كانت

مغبرة ، مسحتها بصدرها الضامر ، ثم تأملتها فرأت بها يشبه احلام اليقظة انها تنتزعه منهم ويعود اليها . قبّلت لحيته وقبعته ونظارته ، وانسلت الى الفراش الذي كانا فيه قبل قليل ، ثم ضمته الى جسدها ، فلم يعد يفصل بينهما سوى كتلة لحمية منتفخة كالبالون ، ذابت بعد حوالى عشرة ايام ، وتحولت الى من صار اسمه فيما بعد : « خالد » .

ودون الذهاب مع مبالغات نذير بأن المشكلة بدأت ساعة الصقت مريم صورته الى بطنها ليلة اعتقاله ، وان ابنه قد تعرف على الصورة حتى قبل ولادته بحيث نُقشت في عظامه ودمه وعقله . . فان المشكلة ، في الواقع ، ولدت بعد ولادة خالد ، ومن ثم راحت تنمو معه في البيت .

ما يؤكد هذا الاعتقاد أن مريم كانت ، طوال سنوات اعتقال زوجها ، تشارك صورة نذير في الكبيرة والصغيرة : وقت إرضاع خالد كانت تمدده على السرير وتعطيه الرضّاعة بعد ان تقرّب قليلا صورة ابيه فيلهو بالتحديق بها وهو يمص حليبه . وان بكى تلاعبه بالصورة فيلهو بها وينسى بكاءه . في الشهر العاشر من عمره علمته : « با . . . با » قبل ان تحفّظه : « ماما » ويوم احتفلت مريم بعيد ميلاده الاول لم تكن الصورة اقل حضورا من صديقاتها واصدقاء نذير ، بل شاركت الصورة في أكل الحلوى ايضا ! . . . وهكذا ، كان خالد يكبر وتكبر معه الصورة : يزعل ابوه الذي في الصورة ان هو كسر صحنا أو آنية . . ويفرح منه ان كان حبابا يأكل صحنه كله . يودّعه من النافذة قبل ذهابه الى الروضة ، ويستقبله ظهراً بالالعاب والحلوى . يجلس مع خالد وامه الى « صدر » الطعام ، ويغفو بينهما ليلاً على الفراش . ما من بارودة أو طابة أو كتاب ملون

أو سعدان أوفيل الا ـ يقول خالد ـ وان اباه قد اشتراه .

وبالطبع ، فان مريم هي التي كانت تفعل ذلك : يجيء خالد من الروضة ، فيركض الى امه يسألها ملهوفاً : « ماما شو جبلي البابا اليوم ؟ » فتجيبه متخابثة : « مابعرف . . اسأله » وقبل ان تتم كلامها يركض الى ابيه . . اعني الى صورة ابيه المركونة على الطاولة ، يسأله ولا ينتظر جوابا . يزيح الصورة فيرى دباً أو كتاباً أو قطع سكر ، فيقبّله على عجل ، ويطير الى رفاقه في الحارة يتباهى امامهم بما اشتراه له أبوه !

كم من مرة ـ تقول مريم ـ كان يشاكسها ، بعد ان كبر ـ فتهدده بأنها ستخبر أباه وسيزعل منه ، فتراه انصاع وحلّفها الا تقول لابيه ! بل كم مرة كان يشكوها لابيه !! نعم . . كثيرا ما رأته ، في غفلة منه ، يقف امام المراة ويحكي باكياً متلعثمًا كيف لم ترض امه ان يلعب مع رفاقه في الحارة أو لم تشتر له بوظة ، أو لم تأخذه الى المراجيح !!

ومن طريف ما روته مريم ، وما يعيننا في تبيّن استفحال المشكلة ، انها في مرة رأته في الحارة ، زجرته وادخلته البيت ، فراح يبكي صاراخاً : « والله يا ماما البابا سمحلي العب » فتندهش امه وتكذّبه . لكنه يصرّ ويهرع الى الصورة يُشهدها : « بابا . . مو انت سمحتلي العب بالحارة ؟ » وتصادف ان تهتز الصورة بفعل حركة يد خالد على الطاولة ، فيلتفت الى امه متشفياً : « شفتي . . هو سمحلي ! »

. . . وهكذا ، انقضت سنوات ثلاث أخلى السجن بعدها سبيله ، لكن الصورة ظلت تعتقله !

وكما يحدث بعد اعتقال طويل ، عانق نذير مريم وبكى ، وعانقته طويلا وبكت « لكني ـ يقول نذير بأسى ـ حين التفتُ الى خالد

وضممته الى صدري أحسست حجراً بيني وبينه ! احسست دهشته المخيفة من عناقي لامه ربما ، او من بكائها ربما ، او من شيء ما زلت اجهله . . لكنني احسست اني اشدّ نابضاً الى صدري ! انسفحتُ عليه شوقاً فكان مثل صخرة بين يديّ !»

بلى ، حاول نذير بعدها كثيرا : استعان بمريم واصدقائه واقاربه . ودَّعه من النافذة واستقبله بالالعاب والحلوى . قلَّد كل ما فعلته الصورة في غيابه . . . دون جدوى ! نصحوه بأن الزمن دواء ، لكنه كان داء يستفحل ، وتتعدد اعراضه حتى باتت مريم ، ايضا ، ترى في عيني خالد شكاً واتهاماً ، أو نظرة تشي ولا تقول : « انت كذابة يا ماما » .

★★★

لا استطيع ان اخبركم ماذا حدث بعد ذلك ، فقد انقطعت اخبار نذير عني بعد انتقال عائلته من دمشق الى حلب . غير اني سمعت من شخص يعرفه هناك ان خالداً ما زال يلعب بالحارة ويتشاقى مع رفاقه . وانك ـ يضيف الشخص ـ اذا ما صادفت خالداً وسألته عن ابيه فلن يقول لك قط انه غير موجود ، ولن يتردد ابدا في ان يطير امامك الى باب الدار يقرعه بتسارع وشدّه ، وحتى حين يصادف ان يفتح نذير نفسه الباب ، فانك سترى خالداً يدفعه جانبا ، وينسلّ الى الغرفة راكضاً ، يقفز فوق كرسي ويقول باشاً فرحاً لابيه الذي في الصورة « بابا اجو رفقاتك . . اجو رفقاتك » . .

آذار / ١٩٨٧

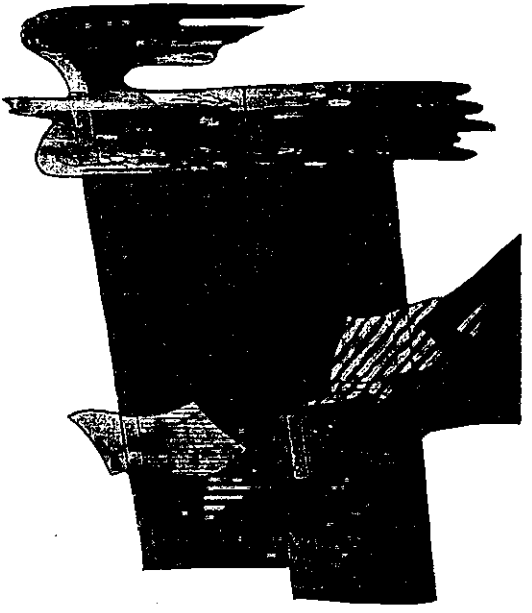

رائحة
الخطو الثقيل

ارتطمتْ بالخبر وكادت تسقط في تكذيبه ، لولا أن أعاد قوله مؤكداً :

ـ بلى . . كما قلت لكِ . . وافق الشباب على لقائك به ، وكلّفوني ترتيب موعد معك .

ـ طيب . . متى وكيف ؟؟

قالت تستعجله الكلام وقد تراجع اصفرار وجهها أمام حمرة داهمة تزيّت بشوقها .

ـ غدا أو بعد غد . . حسبما يتناسب . .

ـ لا ، غدا .

بترت كلامه المبطء ، فقال مهدئاً :

ـ تمهلي سلمى . . تمهلي . غائب عنك منذ سنتين . . استعجلت الان !!

ابتسمت مناكفة :

ـ ومنذ سنتين وأنا مستعجلة . . مستعجلة خلقة !

ـ يا ستي استعجلي على كيفك . . الا في مثل هذي المواعيد ، فالعجلة تكلفك وتكلفه غالياً !

زفرتْ ضيقا :

ـ جئت تحاضر بيّ !؟ أخبرني الان كيف أراه وأين ؟

ابتسم وداعة وهو يخرج قلما وورقة :

ـ اسمعي . ان كان اللقاء غدا فسيكون ليلاً . نظر الى ساعته :

حوالي هذا الوقت .

أومأت موافقة ، فرسم دائرة على الورقة وتابع يقول :

ـ تعرفين مشفى المجتهد (وضع شارة × داخل الدائرة) مقابله تقريبا حارة أو شارع صغير تفضي نهايته الى الميدان (رسم خطاً مستقيمًا يتقاطع مع الدائرة) في هذا الشارع الفرعي . . . .

همست لهفة :

ـ عرفته . . هناك ؟

ـ لا . . انتظري ! في هذا الشارع انعطافان الى اليسار (قاطع المستقيم بخطين متوازيين متباعدين) دعي المنعطف الاول . . في بداية المنعطف الثاني ، على كتفه تماما ، بداية حارة ضيقة خالية من البيوت ، في نهايتها شجرة كينا ضخمة (رسم مستقيمين قصيرين متقاربين ، ثم علّم نهايتهما بما يشبه الشجرة ، ووضع شارة × بارزة) هنا . . تحت شجرة الكينا تماما . . ترينه .

هلّ وجهها وفركت كفيها :

ـ عظيم . . اتفقنا . . . وفي أي ساعة ؟

شدَّ ابهامه الى سبابته :

ـ التاسعة ليلا . لا تتأخري دقيقة ولا تبكّري دقيقة . التاسعة تماماً .

حزمت شعرها الاسود الطويل خلف رأسها ورفّت جفنيها :

ـ حتما . . حتما .

نحّى الورقة والقلم جانبا ، وشابك بين أصابعه :

ـ والان . . انتبهي لي . . . .

قاطعته مستاءة ومدهوشة :

ـ محاضرة أخرى !!

دُهش من دهشتها :

ـ ومحاضرات . . ! يعني اعتقاله أفضل ؟!

نتـأت ، للحـظة ، مخاوف كانت خبيئـة في لجة فرحها بلقائه . أردفت تطمئنه :

ـ أعني . . . فهمت التحذيرات من لقائي معه المرة الماضية . ثم راحت تقلد صوتـه وحـركاته : لا تتأخري . . لا تخبري أحدا . . داري اضطرابك . . تيقظي لمن حولك . . حاولي أن . . . .

خطف الكلام منها :

ـ هذا ما أريـد التـأكيـد عليـه هذه المرة : تيقني ممن حولك في الـطريق . يحتمل أن يكون بيتكم مراقبا بعد مداهمته اخر مرة . . ولذا ، تأكدي من أن أحداً لا يتبعك أو يراقبك . علامة الامان كما اتفقنا عليها مع « أبي عمر » محفظة يدك . فطن لعمر فأضاف : على ذكـر عمـر . . لا تحضريه معك ، ولكن خذي صورته فقد طلبها ابوه . المهم . . ان كانت محفظتك معلقة على كتفك اليمنى وسبحته في يده اليمنى أيضا . . كان لقاؤكما آمنا . عند أي تخمين أو توجس أو شك . . علقي محفظتك على كتفك اليسرى ولا تقتربي منه . . وهو سيحترز بنفس الطريقة . اتفقنا ؟

ـ إتفقنا .

أجابت وقد بهتت حمرة وجهها وعاوده اصفرار قلق خفيف .

ـ والان . . أنا ذاهب . تريدين شيئا ؟

ـ شكرا يا أبا ماجد

استدار بعد خطوتين :

ـ سلمى . . . حاذري ! هم لا يعرفون شكله حتى الان . . أنت دليلهم الوحيد .

ـ لا يهمك . سلّم على الشباب .

لكنها ، ما ان قفلت راجعة ، حتى انزلقت في هاوية قلق لا تدري كيف داهمها !

★ ★ ★

عندما وصلت البيت ، كان النعاس قد سبقها الى الفراش ، فأسرعت ـ بعد أن خطفت نظرة اطمئنان على عمر ـ وارتمت في أحضانه . . . لكنه جفا !!

سُرَّت ، رغم امتعاضها ، من جفوته إذ نهضت ذكريات ورؤى ايام كثيرة نأت . . فاستلقت على ظهرها ، وراحت مخيلتها تعدو خبباً مع الايام الماضية . . يوم تعرفت اليه . . ويوم تعاهدا على جذع شجرة ألا يفترقا . . ايام انتظاراته الغاضبة ومجيئها الملهوف .

أكبت على وجهها تهرب من ارق وشيك ، فتلاحقت الايام . . يوم زواجهما المفاجيء وذهول أهلهما . . يوم اختلفا وبكت كثيرا وأصرت ألا تبقى معه لحظة ، ولحظة ـ عند الباب ـ عندما تطلعا الى بعض ، وفاضا ، وانغمرا ، والتحما ، وذابا ، وارتعشا ، ثم خفتا ، وهمدا ، وسكنا مثلما يسكن عشق في قلب شقاه الحزن .

رمت الشرشف عنها ، وعاودت الاستلقاء على ظهرها . . فهبَّ ذلك اليوم الرهيب في عينيها كأنه الأمس ! ساعة داهموا البيت بحثا عنه ، وكيف قلبوا أغراضه ، وقلبوا ـ حينها ـ الفراش ، وكيف سرقتها ، في ظلمة رعبها لحظتذاك ، ابتسامة مباغتة :

« أيعقل أن يكون مجيد مختبئا بين شبك السرير والفراش !! » .

ثقل جفناها ، ولم يطبقا ! طمرت وجهها تتوسل نوماً . . فمدّت شجرة الكينا أغصانها من شبّاك مخيلتها ، فتعلقت بها وهبطت . . . رأت مجيدا يخرج من جذعها كأنما ولد للتو ، فضمته ومرغت وجهها

في صدره . . وبكت . غمرها ، فغابت بين يديه . تسربت اليه تشم رائحة الصنوبر العابقة منه فاتسع بحور آمداء زرقاء مطرزة بحبيبات الشمس الحانية . . مضت به ومضى معها بصحبة شمس تأفل خلف افق بعيد كان واضحا ثم راح يتلاشى شيئاً فشيئاً ، في أحضان الظلمة . . . .

★★★

حين صفقت الباب خلفها ، انفتحت في صدرها هوة المخاوف والتوجسات من لقائه . سوّت ثوبها السماوي ، وركّزت شريط محفظتها على كتفها اليمنى ، وتأكدت من الوقت : التاسعة الا ربعا .

مشت تقطع الحارة المنتهية الى شارع « ابن عساكر » وهي تتخطف نظرات حذرة ، ثم انعطفت يمينا وتابعت . . قليل من المشاة وكثير من السيارات . أحست الوجوه تنهبها : « هو السارق هكذا . . يظن كل الناس تنظر اليه » وشوشت نفسها متجاهلة المارة ومتجهة نحو ساحة باب مصلى :

« أأراه حقا ؟! هل يقبل بالعودة معي الى البيت ؟ جدران البيت اشتاقت له . وعمر ؟ يا الهي لو سمحوا بجلبه معي ! » فتحت محفظتها وتيقنت من وجود صورة عمر ، ثم أغلقتها : « ربع ساعة ؟! كان يجب ان اخبرهم أن ربع ساعة لاتكفي ! لا ، لا تكفي ! في المرة الماضية كانت مثل الحلم ! ثم . . . لقاءان في عامين !! »

ـ يسعد لي الله أوقات الحلوين .

نقزت على صوت شاب صار قبالتها ، فانحرفت مرعوبة : « الله لا يسعد أوقاتك يا كلب » شتمت في سرها ثم أغذّت في السير تلتف حول الساحة . سألت الوقت : التاسعة الا سبع دقائق . قطعت

شارع المجتهد الى الرصيف المقابل لرصيف المشفى : « سأسأله الى متى يظل متواريا . . ومتى ننتهي من هذا الكابوس . . مرتان فقط داهموا البيت وسألوا عنه ولم يعودوا بعد ذلك . . يعني الى متى ؟! لا بد انه والشباب موهومون . .فمن سيتفرغ لمراقبته أو مراقبتي !؟ » وخزت « المراقبة » سدرها قبل ان تنعطف الى الشارع الفرعي المقابل للمشفى . . التفتت ، ففوجئت بشخص يخطو خلفها ! انقبض صدرها وتبخرت تساؤلاتها : « معقول ؟! » فكرت تستعيد سيرها طوال الطريق ، فأحست أو تراءى لها ان شبحه لازمها مذ خرجت من البيت . عاودت التلفت ، فرأته دون ان تتبين ملامحه : « أيكون واحداً منهم ؟! » نفذ الهلع الى عينيها ، فأبطأت تجلو حقيقته : « أم هو أحد المشاكسين الزعران ؟! سرَّت تنأى بظنها الذي تلبسها مثل الاخطبوط . تابعت ابطاءها ، فلم يتجاوزها ولم يمض من خلفها كما أحست من وقع خطواته الثقيلة مثل مطرقة فوق قلبها ! تناوب صدرها علوا وهبوطا وهي تجاور الدكان القديم . . عاوت النظر قبل ان تنعطف يسارا في الحارة الضيقة . . . فلمحته !

مثل رعشة تنتاب المرء فيختلج كيانه كله رغما عنه . . نزعت يدُها شريطَ محفظتها وعلقته على كتفها اليسرى ، ثم خطت في حارة شجرة الكينا تسحب قدميها كما لو كانتا تغوصان في طين عميق دبق : «قتلني هذا الصمت . . ليته يشاكسني ولو بكلمة واحدة!» لاحت الشجرة، فذابت قلقاً وندّى جسمها عرق طفح مثل حمى مباغته وهي تغور تحت وقع خطوات الصمت خلفها ودنو الشجرة منها . . .

في اللحظة التي ظهر فيها مجيد من خلف جذع شجرة الكينا يحمل سبحته بيده اليمنى، شُلت يدها فوق محفظتها المعلقة على كتفها اليسرى وراحت قدماها تخطوان بطيئاً ، بطيئاً كما لو في كابوس حلم

ثقيل . . . دنت فلمحت وجهه المشدوه وسط لحيته التي طالت يقول ويسأل مذعوراً دون صوت . . . هجمت عليه بعينيها ، ضمته اليهما ، ثم أسبلتهما وهي تتجاوزه وقد خلّفت قلبها يئنّ مختنقاً برائحة الخطو الثقيل الممض خلفها . أسرعت قليلاً ، ثم هرولت باتجاه الشارع العام . . قطعته الى المشفى . تحادثت ، خطفاً، مع عامل غرفة الاستعلامات . دخلت المشفى . دارت دورتين وخرجت . تلفتت خلفها وحولها ، لم تجد « الشخص » . نطت تقطع الشارع الى الرصيف المقابل . زعقت سيارة فرملت وكادت تصدمها . تابعت ركضها وشتائم السائق تلاحقها : « ولك يا . . . . . زبونك ما رح يطير ! »

طارت باتجاه الحارة الضيقة وهي تمسك محفظتها في يدها اليمنى ، دخلتها . . . فانبجس الظلام وسحَّ في الحارة كلّها ! ارتجت على فزعها ، وراحت تستطلع . . فرأت صمتاً مشبوحاً ! أدارت عينيها ، فسمعت فراغاً مجوفاً بالفراغ !

أفلتت عيناها باتجاه نهاية الحارة . . فاصطدمتا بشجرة الكينا الضخمة الملفعة بالذهول لا تنتظر أحداً ولا يخرج من جوفها أحد ، في حين تلاشت أغصانها الكثيفة المتشابكة في فضاء العتمة .

دنت من الشجرة . . حاذتها . . ثم ضمتها الى صدرها الواجف وأخذت تدور حولها . . . فخدش حفيف يديها فراغ المكان وصمته القاتلين !

توقفت وقد أحست قواها تفرّ منها . سندت ظهرها الى جذع الشجرة وراحت ، مأخوذة ، تهوي رويداً . . رويداً ، تحت وطء محفظتها التي ظلت معلقة على كتفها اليمنى .

تموز / ١٩٨٧

هذه المرة

ابنتي الصغيرة ، يغضبها مسح وجهها بالصابون أو رشقه ـ خفيفا ـ ببعض الماء فتفر برمه ، أو تتلوى بين يدي كلما ادنيتها من الصنبور . . . فأضطر لغسل وجهها عنوة ، متغاضيا عن صراخها وبكائها الرافض .

غير انها ، هذه المرة ، استكانت لساعدي ، وسلّمتني وجهها الذي بدا ، تحت قطرات الماء وحزمة الشمس الساقطة عليه ، مشعا بضياء غريب لم اعهده من قبل .

وتستهويها اللعبة ـ دائما ـ فتتابع ركضها المتعثر حول الكرسي ، واستمر انا في دعوتها للتوقف حتى انهي تسريح شعرها ، فلا هي تستجيب ، مترقرقة في ضحكها . . ولا اكف انا ، منزعجا ، عن تصعيد غضبي وتحذيرها بالضرب ، ان هي استمرت في دورانها وحالت دون تمكيني من تسريح شعرها .

لكنها ، هذه المرة ، كانت هادئة وديعة ، اعطتني رأسها ، الصغير المكور ، اسرح خصلاته الذهبية على صدغيها وجبينها ، كما احببت لشعرها ـ دائما ـ ان يكون .

وتواري رغبتها في اللهو بأن تشكو ضيق ثوبها الابيض المشدود على صدرها وخصرها النحيل والفضفاض عند كتفيها المبرومين وساقيها البضتين ، او تتذمر من خشونته التي تضايقها ـ كما كانت تقول ـ مما يدفعها ، دوما ، الى الاختفاء تحت السرير كلما لمحته في يدي .

الا انها ، هذه المرة ، لم تختف تحت السرير ، بل هي ارتضت ارتداء ه بهناء وروية ، أتاحتا لي فرصة عقد الشريط الحريري الازرق عند كتفها اليسرى ، والذي طالما ظل ، في الايام الماضية ، متهدلا ومثيرا لحنقي عليها .

ويغريها جوربها الازرق ، المطرز بقطتين بيضاوين ، ان تسألني عما اذا كانت القطة ستأكل اصابعها ، فأجيبها بالنفي . ثم تكرر السؤال مع الفردة الثانية ، فأضيق واجيبها نزقا : لا . فتبتسم ، وتطلب مني أن أمؤ مثل القطة ، فأفقد صبري صارخا ، وتفقد ابتسامتها باكية .

وعلى غير عادتها ، كفت عن السؤال ، هذه المرة ، وراحت اصابعها الفستقية تنزلق في جوف الجوربين ، دون أن أمؤ لها ، او تبكي امامي .

حتى حذاؤها ، كان يعجزني ويسلبني احتمالي ! فكم تطاير من قدمها الرشيقة المتمردة ، فلا اتمكن من ادخال شريطه الجلدي في حلقته المعدنية قبل ان اعنّفها واحكم الامساك بساقها جيدا .

أما هذة المرة ، فقد انسلّت قدمها في الحذاء باسترخاء وليونة دون تعنيف ، وتجاورت مع الاخرى في ازدواج محبب ، افتقدت تأمله منذ زمن طويل .

فقط . . حين رفعتها وضممتها الى صدري ، مسدلاً رأسها على كتفي ويديها حول عنقي المتصبب عرقا ، انتبهت ـ فجأة ـ الى اني لم احذرها ـ كما كنت افعل دوما ـ من الصاق حذائيها ببنطالي ، لانها ، هذه المرة ، كانت ميته .

آب / ١٩٨٦

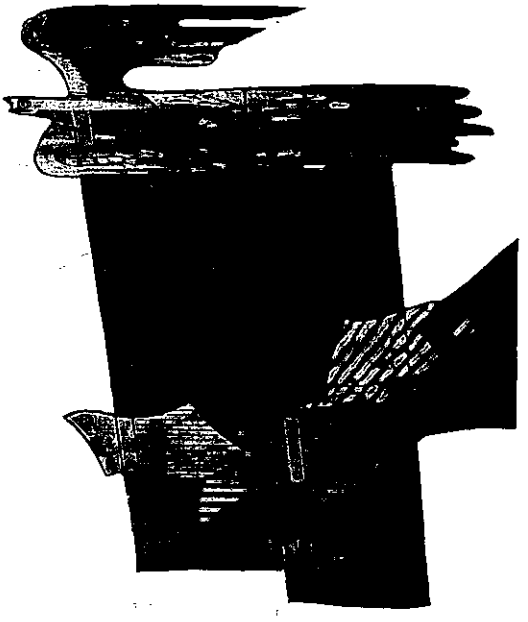

الصناديق

الى
يوسف عبد لكي

لكـزه الضـوء المنسكب من صباح نافذته ، فأفاق نشطاً فرحاً . تطلع الى النافذة فبدا له هذا الصباح أجمل من كل الصباحات الماضية التي كانت تهجم عليـه وهـو في عزّ أحلامه . نظر في ساعة يده : الثامنة . بخفة وحيوية نهض يدلك ساقيه ، تمطى صوته مع جسده : « اربع ساعات . . وأكون محلقا في العلالي ! » .

أشعل سيجارة « حمراء قصيرة » وركن يغلي فنجان قهوة ، فانتبه الى أنه ، على غير عادته ، يدخن على الريق . . لكنه أبقى السيجارة بين شفتيه بعد ان استشعر لذة خاصة من الدخان الذي يلج سريعا رئتيه ، ثم يخرج متباطئا يحمل فرحة صدره ويوزعها على أرجاء الغرفة .

رشف الرشفة الاخيرة ، ثم ضرب الطاولة بكعب الفنجان كأنه يهمّ برفع كأس عرق : « لأبدأ باكراً قبل ان يفوتني الوقت » أشعل سيجـارة أخرى ، وجال بعينيه يرتب أغراض الغرفة التي سيعطيها لصديقه وليد قبل سفره .

كانت غرفة « رغدان الشيخ » أشبه بمستودع صناديق خشبية : خصّ صناديق الوسكي المتينة للكراسي . . وراكب صناديق التفاح متراصة القطع على هيئة مكتبة بعد طليها . . وجُمع ستة صناديق شكّل منها طاولة مستطيلة . . أما « بار الاصدقاء » ـ كما سماه وليد ـ فكان عبـارة عن اربعـة صنـاديق متنـاظـرة ، معلقة في الزاوية ، أفردت

لزجاجات « الريان » و « الياس » وللكؤوس المتنافرة الالوان والاشكال التي كان اشتراها من معمل الزجاج اليدوي . وبين « أثاث » الغرفة تناثرت صناديق ضمَّت رسائل وصوراً وأوراقاً وقلائد وأشياء كثيرة متفرقة ظلت لصيقة قلبه ، الى ان قرر السفر .

حين نهض ينوي افراغ الصناديق . . هبط قلبه ! رفعه ، وجرَّ ساقيه اللتين داهمها ثقل مفاجيء ، همس يُنزل الوجبة الاولى من الكتب : « لا مجال . . انتهى الموضوع » سحب الدفعة الثانية فخلّفت فراغاً معتمًا مغبراً تلامح فيه وليد الذي ظل يعارضه طوال فترة الاعداد للسفر ، تمتم يبلع ريقه : « طيب . . ولماذا أبقى يا وليد ؟! » نكأ تساؤله نقاشهما الطويل الماضي ، فنبر وهو يخلع مسامير الصناديق المثبتة في الحائط : « فهمت . . ولكن اعطني سبباً واحداً معقولاً لاترك السفر ! » تتابعت في مخيلته سلسلة الحجج والاسباب التي عارضه بها وليد . انزل الصندوق العلوي محتداً : « لا تصرعني باسطوانتك التي حفظتها !! » شوَّح بيده يتابع تفريق الصناديق : « نعم يا سيدي . . . أنا أفهم الوطن خبز وجبن ومواصلات ومشفى وبيت ! » نزع مسامير الصندوق ودفعه الى وسط الغرفة .

أشعل سيجارة واستند الى الجدار ينتظر تبدد استيائه المباغت . ثم مال على صناديق الطاولة ، قلبها . . . ففغرت أفواهها وبدت أفواه كائنات غريبة أصابتها الدهشة واقتحمها الرعب : « وماذا أجدت الاجتماعات والقراءات والحوارات وجلسات الشباب وسهر الليالي ؟ !! تفضل . . لا أكلنا عنب ولا قتلنا الناطور !! » زاح الصناديق فأزّت وارتطمت بالاخرى المتكومة وسط الغرفة : « لا وفوق هذا ، صار الاكل بالوزن والكلام بالاذن ! » .

سحب سيجارة يشعلها من عقب أخرى ، فلاحظ ارتجاف يديه .

فكر يهدىء نفسه : « طبيعي . . يعني ترك البلد سهل ؟! » ثم سارع يسدّ منافذ التعب الذي تسرب اليه : « يا رجل . . سهل أم صعب ، فالحياة هنا لم تعد تطاق » عادت طمأنينته ، فاتجه نحو « البار » يفرغه ويفككه . أنزل الزجاجات والكؤوس فهمست رنيناً فارغاً ، ثم أخذ يخلع المسامير التي راحت تئزّ بين فكي الكماشة وهي تُسحب من جسم الخشب .

دفع الصناديق ، واتكأ على خاصرتيه ينظر فيما تبقى . بدت الغرفة منبوشة مثله ، مسح كآبة وجهه ، أشعل سيجارة ، وهمَّ مندفعاً : نزع اللوحات المعلقة على الحيطان . . طوى الفراش والبطانيات . . كوّم أوعية الطبخ . . نحّى المسجلة والأشرطة ورقعة الشطرنج .

صارت الغرفة خليطاً من فوضى . توقف يتأمل فيما يأخذه معه ، فقرر على الفور : « لا شيء » . أفزعه القرار ، لكنه مضى يقاومه بجمع الصناديق وحشوها : « لن أحتاج هناك شيئا من هنا » ضبَّ المسجلة ورقعة الشطرنج والاشرطة في صندوق : « لا مارسيل خليفة ولا الشيخ امام » حزم الصندوق بالحبل ونحاه جانبا : « اسمعهما أنت وتذكرني . . . أنا مللت » قرَّب صندوقا فارغا وركع يجمع الرسائل والمجلات والاوراق والصور ويدسها داخله . لمح صوره مع منى . توقف يتأملها ، فهاجت أيامها الماضية . شعر بوهن مباغت يقتنص اندفاعه . ابتسم بحزن مكسور : « هل صدقت الان يا منى ؟؟ كنت تقولين مناكفة : ولكني الياطر الذي يشدك فأين ستبحر ! أنت ياطري فعلا . . ولكن أنا الذي غرقت مثل سفينة تصدعت » أحس العرق يندي وجهه ، مسحه بظاهر كفه ثم نظر الى الساعة فوخزته : التاسعة والنصف ! .

نهض يلحق الوقت . جمع الكتب اعتباطا وعبأها بالصناديق ثم

شدّها . ألصق اللوحات بعضها الى بعض وراح يلفها بالحبل : « ولِمَ الرسم ؟ أصغر دار سينما تغصُّ بما لا تحلم به أكبر صالة عرض تضم أعمال فاتح المدرس أو لؤي كيالي ! » وسَّد اللوحات فوق الصناديق المحشوة . دحرج الفراش واتبعه بالبطانيات والوسادة ، ثم حمل صندوقا يملؤه بما بقي وتبعثر . . .

حين انتهى ، شعر ان الارهاق قد هدَّه . انسحب نحو باب الغرفة المغلق . أسند ظهره ورأسه اليه . تأمل الصناديق فبدت تلة من أفواه محشوة ومكمومة بالحبال ! دبَّت فيه رعشة مباغته فهمس : « لم أعد قادراعلى البقاء » هيَّج همسه المخنوق حزنه ، فباح كأنه يودع صديقه : « صدقني يا وليد لم أعد قادراً ! سبع سنوات في المعتقل . . وسنوات في البحث عن عمل . . وأخرى في تأمين غرفة أسكنها . . وأخرى وأخرى في الركض والاجتماعات والسهر . . . يعني ما الذي عشته هنا ؟ !! » .

هزَّ رأسه وابتسم مرارة يفك أزرار منامته : « أريد ان أفهم فقط أي سفرجل هذا الذي سأندم عليه وأنا أغصُّ بكل لقمة منه !! » راقه التشبيه فتضاحك وهو يتناول قميصه وبنطاله ، ويُخرج جواز سفره وتأشيرة الخروج يطمئن على وجودهما ، ثم استدار نحو المرآة التي ظلت معلقة على الحائط . في اللحظة التي صار فيها أمام المرآة وكاد يُدخل يده في كم قميصه . . . سرقته دهشة غامضة !!

فرَّ من شروده وتلفت حائر : « غريب . . ! لِمَ لا أظهر في المرآة !؟ » عاود النظر في المرآة فعاوده المشهد الراعب : سطح أملس يعكس بضعة من الصناديق وجزءاً من الحائط المقابل دون أن تظهر بينها صورته ! « مستحيل . . أين اختفيت !؟ » صرخ مرتداً الى الخلف ، ثم اقترب بحذر من المرآة كأنه يداني وحشا مفترسا . مدَّ يدا

مغلولة بالتوجس يمسح الغبار الذي تراكم على سطحها ، فلا بانت يده على وجه المرآة ولا انزاح الغبار ! مذعوراً فرك عينية ، ثم اختلس نظرة واهنة : لا أحد ! إختلج يكذب عينيه بتلمس صدره . . فهوت يداه في فراغ أبكم . . صرخ مهووسا : « يا الهي . . كنت هنا قبل قليل ! أين اختفيت ! ؟ » جنَّ الذعر فيه وطفق يبحث عن ساقيه . . فلم يتبينها ! من وهاد الخوف اندفع نحو زاوية الغرفة وهمس بصوت أبح : « رغدان !؟ » فما سمع صوته ! كذَّب أذنيه بصراخ صوته : «رغـداااان !؟ » غير ان الجدران امتصت صراخه وبقيت الصناديق قابعة وسط الغرفة فاغرة ، محشوة ، ومكتومة !

جابت عينـاه الوجلتان خواء الغرفة ، فلاذت الصناديق فيهما . انتفض ملتـاثاً . هجم على الصناديق يركلها ، فأنَّت وتدحرجت . تقوَّس يقطِّع وثاقها ويقلبها وهي تتقيأ أجوافها دفعة واحدة مثل سكير لفحـه الـزمهـريـر . رفع صندوقا وألقى به . . ثم رفع آخر وآخر فتـطايـرت الرسائل والاوراق والصور والكتب والقلائد والاشرطة والـرقعـة وحجـارة الشطرنج . اندفع يحلّ رباط اللوحات فراحت تتهـادى متسـاقـطة . انبـطح بين الـركـام ينـادي بصوت مهدود : « رغدان . . رغدان !؟ » .

بغتة . . لامست يداه شيئا طريا ، فسكن ! ثم ، واجفاً ، عاود التسلل باللمس . . فأحسَّ تحت أنـامله جسمًا لحمياً أشبه بالجسد الادمي ! جسَّه أكثر ، فتعرفه . . غير أنه كان مخدداً كما لو أن وثاقاً فك عنه للتو . . !

أيار / ١٩٨٧

لينّا

خَمنتْ أنها أرتجت الباب ـ كعادتها كل صباح ـ على همومها وأحزانها اليومية حين خرجتْ من البيت متجهة الى المدرسة . . . لكنها ، ما ان خطت بضع خطوات حتى أحست الهموم والمشاغل تتأبط زندها الحرة من الكتب المدرسية ودفتر التحضير !

نقلت الكتب الى يدها الحرة لتغلّها ، ثم ضمتها الى صدرها الناهد . . فانزلقت الهموم والمتاعب عن زندها وتعثرت على الارض ، ثم راحت تتقافز خلفها مثل طفل عنيد مشاكس ينقّ للذهاب مع أمه الى السوق .

« إيه . . . عمر ويمضي يا شيخة » خففت عن نفسها وهي تدرج على الطريق الترابية المعتادة : « عمر . . ويمضي ! » .

اعتادت « ليّا الحوش » ، في الطريق التي تقطعها راجلة كل صباح من بيتها الى المدرسة ، أن تشغل نفسها بالدورس التي ستعطيها لتلاميذها ، تلاميذ الصف الخامس ، أو تتفحص بعض الثغرات التي وقعت بها في اليوم السابق ، أو وجوه بعض التلاميذ الكسالى في صفها . وأحيانا . . . كانت تقضي الطريق ، الطويلة نسبيا ، بحثاً عن طرائق مبتكرة تدخل بها هذه المادة الملعونة ، الرياضات ، الى أذهان طلابها أو بعضهم ممن كانوا يتعوذون من الشيطان كلما آنت حصة الرياضيات .

وليّا الحوش أحبت التعليم . أحبته من كل قلبها . معّن حياتها

ولـونها . دخـل يوميـات العيش التافه الذي تجرجره راكضه خلف السكر والرز والسمن والزيت النباتي وثياب العيد ، فصار مثل جزر ترتاح فيها في خضم متلاطم الركض . . . صحيح ان غصة صغيرة ظلت تخنقهـا لانها معلمة وكيلة . . لكن « ستي . . . يعني المعلمة الوكيلة ضلع ناقص ؟! » كسَّرت غصتها لتهضمها ، وتابعت السير مطرقة : « حتى لو كنت ضلعا ناقصا . . دفاتر التفتيش تشهد أني أحسن من مائة معلمة أصيلة ! نعم أحسن ! لولا انهن يقبضن أكثر مني وأول كل شهر » أضحكتها مشاكل (أول الشهر) ومشاجراتها مع زوجهـا الموظف بشهادة بكالوريا ، ثم فطنت أنها تسير وحدها فبلعت ضحكتها وقطعت الى الجانب الآخر من الطريق : « . . . . وفوق الدكة شرطوطة . . القبض كل اربعة خمسة أشهر . . ولا ترفيع ولا من يحزنون !! »

حزَّت تداعياتها متعة الطريق ، فتعكر وجهها وبدا مكروباً خابياً متغضناً بأحمال لا طاقة له بها .

ـ صباح الخير يا آنسة . . .

نهض ابو علي اللحام محييا بصوته الجهوري ، فتنبَّهت وردت بعد لحظة غياب :

ـ صباح الخير يا حجي . . صباح الخيرات .

« قال آنسة . . . قال !! » سخرت ابتسامة شفتيها : « آنسة طول وعرض بـ ٩١٨ ليرة ! عليم الله أجير عنده لا يقبل المبلغ . . ! لا والله لو علم كم أقبض وكيف اعيش لما رضي ان يرفع عجيزته ليحييني !! »

بانت المدرسة ، فراحت تهدهد نفسها : « يا ليّا . . . العمر صار مثل البولة في الحمام ! تسع سنوات وأنت معلمة وكيلة . . . ما الذي

فتّق جروحك الان ؟! يعني باختصار لا تفكري . . فلا راتبك ولا راتب زوجك ولا راتبان فوقهما تكفي عيشكم . . وحتى لو كنت معلمة أصيلة . . . يا ستي حتى لو كنت . . . .

ـ صباح الخير آنسة

ـ انسة صباح الخير

ـ صباح الخير آنسة

تطايرت صباحات التلاميذ حول ليّا اذ كانت تلج بوابة المدرسة ، فأخذت نفسا طويلا كمن تصحو من غيبوبة ، ثم فردت ابتسامة عريضة تهمّ نحو غرفة المعلمات :

ـ صباح الخير حبيباتي . . صباح الخيرات .

★★★

رمت مشاغل الطريق عند عتبة الباب ، ودخلت الصف . . فقرقعت تصبيحات اربعين تلميذاً اعادت لها حيويتها ، فانطلقت مثل غزالة :

ـ الله يسعد صباحكم يا أولادي . . هيا . . كالعادة . . دفاتر الوظائف الليلية اولا . . اسكت يا حسن . . . ثم مراجعة الدرس الماضي . . لا . . لا اجلس الان يا مروان سأجمع الدفاتر وانتم في مقاعدكم . . اعطه مسطرته يا علي وانتبه لي . .

مثل كرة نطاطة كانت ليّا ـ كعادتها ـ تتحرك في الصف ، بين المقاعد ، خلف التلاميذ ، قرب السبورة . . تهدىء مشاغباً ، وتنبّه لاهياً ، وتضاحك مجتهداً عجولا . . فتستلّ منهم خمول الفراش الذي جلبوه معهم من بيوتهم ، وتبعث فيهم نشاطا ملحوظا قلّ مثيله في دروس أخرى مع معلمات أخريات .

صاحت من خلف الطاولة قرب السبورة :

ـ حسام ولؤي وعبد الغني . .

نهضوا من مُداراتهم وجلين .

ـ تعالوا .

تلكأ كل واحد منهم رجاء ان يسبقه الاخر . وتلكأت هي في حفزهم اذ داهم مخيلتها وجه زوجها صباح اليوم .

ـ اقتربوا . . اقتربوا . لم أخطأت في حلّ التمرين يا حسام ؟

ـ آنسة . . آنسة . . ما عرفت كيف أطرح الـ . .

ـ وأنت يالؤي؟

ـ وأنا أيضا آنسة

ـ وعبد الغني . . ؟

ـ مثلما قالا آنسة . .

ـ طيب . . ارجعوا .

وإذ أسبلت جفنيها ممتعضة ، فيما كانوا يهمّون منكسرين الى مقاعدهم ، ضجَّ في رأسها استياء زوجها الصارخ ، فنهضت تتكيء على يديها ، ونادت بعصبية غير معهودة منها :

ـ من منكم أيضا لم يعرف حل التمرين قبل أن أدقق الدفاتر ؟

ارتفعت بضعة أصابع مثل شاهدات أمام عينيها ، فهرعت تومىء ان اخفضوا أصابعكم . خفضوها ، فنهض صوت زوجها : « ما عدت أحتمل الانتظار يا ليّا . . . اربعة اشهر ولم تقبضي قرشاً واحداً . . . من أين نعيش يا خانم ؟! » أخمدت صوته بالقرع المنبّه على الطاولة . . ثم أخذت قطعة طبشور ، وتوسطت السبورة متجهة نحو التلاميذ :

ـ التمرين بسيط . . شرحته لكم في الدرس الماضي عدة مرات .

افتحوا عقولكم . حسن يا غبي العمى يضربك . . انتبه !

واستدارت تكتب على السبورة فواجهتها المساحة الخضراء الممتدة بصمت صموت : « شرف حضرتك اسأل المحاسب المعتمد . . مديرية تربية ريف دمشق . . تسألني أنا !! » ثم راحت يدها تكتب بآلية وصوتها يعلو مرهقا :

ـ لدينا العدد ٢/ ١ ٨٧ نريد ان نطرح منه العدد ٤/ ٣ ٦ ، فماذا نفعل ؟ انتبهوا !

استدارت نصف استدارة نحو التلاميذ واصبعها على العدد ٨٧ :

ـ من هذا العدد الصحيح يمكن بسهولة طرح العدد الصحيح المقابل ٦ . . . أما طرح الكسر الثاني ٤/ ٣ من الأول ٢/ ١ فكيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟ مهران ؟ وقف ولم يجب . اجلس يا مهران . . . سعد ؟

ـ آنسة . . نوحد المقا . . . لا ، أعني نأخذ عددا بسطه ومقا . .

ثم صمت مفكراً . فنادت : عيسى !

ـ انسة المقامات أولا . . . نوحّد مقامات الكسرين أولا ثم . . .

ـ فهمت . . . سيكون لدينا ٤/ ٢ ٨٧ - ٤/ ٣ ٦ . . ولكنني أسألكم . .

توقفت فجأة حين تنبهت أنها لا تبارح السبورة : « ولم لا أستخدم معهم طريقة عملية ؟» نزلت عن العتبة الاسمنتية ، وطلبت من التلاميذ بصوت رفيق :

طيب . . سأفهمكم . . . سأفهمكم . ليُخرج كل واحد منكم ما معه من نقود . . هيا .

وما كادت تنهي قولها حتى تدافعت أيادي التلاميذ مثل قبيلة نحل حول يدها التي راحت تجمع خليطا من ورقيات ومعدنيات كثيرة .

جمعت المبلغ ، الذي ربا عن مائة ليرة ، على الطاولة . . ثم التفتت الى التلاميذ :

ـ انتبهوا لي . لنفترض ان هذا المبلغ يساوي ٨٧ ليرة (فتشت عن ربعين ثم رفعتهما) و ٢/ ١ الليرة ، ونريد ان نأخذ منه ٦ ليرات و ٤/ ٣ الليرة . . ماذا نفعل ؟ يمكننا ببساطة ان نأخذ ليرة صحيحة من المبلغ مقسمة . .

ـ نعم آنسة . . نعم آنسة . . الى أربعة ارباع .

ـ أحسنت يا صفوح . فيصير لدينا العدد ٨٦ والكسر ٤/ ٦ وبذا يسهل علينا ، كما ترون ، أن نطرح منه الكسر ٤/ ٣ . واضح ؟ سهلة أليس كذلك ؟ طيب . . حاولوا الان حل التمارين التالية . .

أملت عليهم تمارين جديدة وكأنها تدفع كرة ثقيلة عن صدرها ، ثم جلست ساهية تجمع وتفرّق الليرات وسط لغط التلاميذ الهامس .

بغتة ، أبعدت ليّا أصابعها عن المبلغ ، وكأن عقربا نتأ من تحت الليرات المتراكبة المبعثرة على الطاولة ! سرقت لمحة الى التلاميذ . . . فبدوا منكبين على دفاترهم . نهضت وقد لدغها الخوف ، فاجتذب عينيها بريق الليرات المتلألىء .

« طبعا لا !! » أجفلت من فكرة راحت تزحف في رأسها مثل حية رقطاء . . فركنت الى زاوية السبورة تلهو بخطوط لا تراها !!

ـ آنسة . . أنا خلصت .

أنقذها صوت صفوح المنبعث من المقاعد الخلفية .

ـ أحسنت يا صفوح . . تعال لأرى .

وجدتها فسحة ، فغرقت تتأمل دفتر صفوح دون انتباه : «ولم لا ؟! هو مبلغ محترم ! تسع راتبي الشهري تقريبا . . لكن . . ؟ ستي ومن سيعلم ؟! التلاميذ . . ! سينسوا ! حبهم لي ينسيهم

المبلغ . . »

ـ آنسة . . آنسة

ـ تعال . .

وقف غسان قرب صفوح ، وغطست ليّا من جديد : « هذا هو الجنون بعينه يا ليّا ! تصوري المدير والآنسات وأنت تقفين بينهم مثل تلميذ لص شقي !! يا الهي ! »

نظرت الى التلميذين الواقفين قربها تسترق فرصة ، فبدا في عيونهما سؤالا رماديا قاتما . نزلت عن العتبة ، واندفعت بين المقاعد تهرب من كابوس حيتها الرقطاء . .

ـ من انتهى ايضا . . ؟

ـ أنا آنسة

ـ أنا آنسة

امتدت الدفاتر اليها ، فأحست كأنها وثائق اتهام يشهرها قضاة في وجه الجاني . للتو ، ابتكرت محطة تأمل جديدة .

ـ تأكدوا أكثر . . لا أريد خطأ . .

ثم تهادت بين المقاعد متوجسة من مشهد العقارب المتزاحمة فوق الطاولة : « مجنونة يا ليّا !! مرة واحدة . . ولن اعيدها ! ومرة واحدة تسقطين ! كفى ! لا أسقط ولا اعلو . . هذا في كتب الديانة فقط ! وعيون التلاميذ يا ليّا ؟ وسمعتك ؟! يا أختي . . ليرة أو ليرتان بالنسبة للتلميذ ماذا تفعل ؟! يعني صحيح الواحدة منا . . »

مثل طلقات نارية متتالية ، اخترق رنين الجرس الآذن بنهاية الحصة أذني ليّا ، فانتفضت ملتاعة في غمرة زعيق التلاميذ وبرودة ثوبها المندى بالعرق الطافح السيّال . .

آب / ١٩٨٧

يا
فدوى

معاً ، تشويحة يده في فضاء الباص وصوت كالفحيح نتأ منه . . جعلاني أظن أن الجالس الى جانبي مصاب بمس !

وجهه ، حين خطفته بنظرة عجلى ، كان صامتاً عن لغم حاذرت انفجاره بمطابقة رقم مقعدي مع رقم بطاقة السفر . . ثم داريت اكثر بالتطلع الى الطريق الذي مضى ، للتو ، بالاتجاه المعاكس للباص .

ـ شيء يجنن يا رجل . . !

داهمني الصوت المتهدج قبل ان أدرك انه يعنيني . كان صوت الرجل الجالس قربي حذاء النافذة . تكلّفت ابتسامة وأنا انظر اليه ، فلم يتكلف شيئاً سوى انه تابع يخاطبني بعينين سكرانتين :

ـ اقسم لك بالله طقّ عقلي ! عشر سنوات مثل السمن والعسل ! ما قصّرت يوماً ولا قلت لا . . العمى !

نبر يضرب ساقه بيده ، يدفعها ثم يسحبها على امتداد الساق وظهره ينثني ويستقيم قلت لأمسك الحديث :

ـ خيراً إن شاء الله . . ؟ يظهر . . .

غير أنه أدار وجهه نحو النافذة ، فأتاني صوته كثيفاً مرتداً من ارتطامه بالزجاج :

ـ نعم . . صدّقنا وآمنّا ان الدنيا غلاء ! . . يا ستي وغلاء مثل الكذب كما تقولين ! طيب . . يعني هذا يافدوى . . .

التفت نحوي، فأجفلني اعتكار وجهه :

ـ يعني اذا كانت الدنيا غلاء يا رجل . . العمى ! مصيبة! بالله عليك أليست مصيبة ؟ هززت رأسي أهمُّ انتهاز فرصة . . لكنه تدفق :

ـ أكان ينقصنا !؟ ألا تكفي عيشة الزفت التي نعيش !؟ أول بطن . . والثاني . . في الثالث خلّفت توأم . اربعة أولاد يلزمهم خرج مال ! وأمهم وأنا ؟ صرنا ستة ثم . . ثم إجرة البيت ؟ قال بيت قال ! قل خم دجاج يا رجل ولا تخف ! لأ سيدي ، إحسبها ١٢٠٠ ليرة من الشركة و ٨٠٠ ليرة من محل ابي ماجد بعد الدوام . ماذا أعمل ؟ أقطّع نفسي !؟

تصيدت فرصة سؤاله لأسأله

ـ سيدي ، الحال من بعضه . . لكن . . .

لم يفسح لي مجالاً ولا سمعني ربما

ـ يدلف البيت ؟ نرقّعه . الاولاد عرايا ؟ ليسوا أحسن من الذي خلفهم ! يلزمنا ألف غرض وغرض ؟ صحيح . . ولكن نظل نلهو بالمقصقص حتى يجيئنا الطيّار . نعم . . نظل نلهو بالمقصقص ، والا ماذا نفعل ؟! قال ماذا ؟! حسان ! يا أخي حسان معي بالشركة وشغيل مثلي . . أي نعم . . ولكن حسان يشتغل بالتهريب إضافة على شغله بعد الدوام . يا عمي الله الوكيل أنا لا أعرف تهريب صوص ابن يومين ! لأ سيدي . . ولا بيع الساعات وبناطيل الجينز ! يا أخي سرقوني . . جرّبت وسرقوني . لا انكر . حقها . ولَمَ الكذب ! صرنا على الحديد فعلاً . . غير أن ما تفكر به من انها . . . .

اختنق بصوته فغيّب وجهه في الزجاج ثانية كأنه يحاول اختراقه . حرت فيما يقول وفيما اقول . وجدتني مأخوذاً الى مجهول كلامه .

حاولت ان أخمن ، فتهت اكثر . عدت اداري مصيبته الغائمة بلهو منتظر . أرجعت ظهري ووكأت رأسي الى مسند المقعد ، ثم اخرجت سيجارة وقدمتها له :

ـ بسيطة يا شيخ . . دخّن عليها تنجلي . .

باح مهدوداً :

ـ والله لا يجلوها غير ربك يا رجل . تركت الشراب حتى أوفّر ، وبعدها تركت الدخان ايضا . ماذا عليَّ ان اترك ؟ حياتي !! لأ . أنا لا اتهمها . المخلوقة ست بيت ومدبِّرة . يشهد الله انها أحسن مني ، أصلاً لولاها لجرجرتنا الكلاب ، لكن الاولاد . . .

اقتحمت كلامه حتى لا أبقى مثل الاطراش في الزفّة :

ـ فعلاً يظهر الأولاد هم . . .

ـ وأنت قلتها . يرحم امواتك . المشكلة انه لا في صدرها حليب ولا في السوق . . ويا من ترى الاولاد يتنابون المرض . طيب . . مشـافي الحكـومـة ما فيهـا دواء . . أجلب من بيت أبي ؟! هذي حالنا . . طيب هاتي ما عندك ! . . اعطني حلاً !!

في تلك اللحظة ، انحسر الهدوء عن وجهه وفاضت ملامحه رعباً :

ـ ماذا !! قالت هذا حل !؟ يا جماعة الخير قالت هذا حل ! يعني إما أن تكون قد جننت . . أو أنني جننت !!

وراح يخبط يديه على ساقيه ، فيما تعاظمت دهشتي وتفشى سؤالي المعلق على شفتي . وعلى غير توقع . . أطلق ضحكة عجفاء موتورة كادت تيقّن ظني ان الرجل ممسوس .

ـ صدقني . . ليس ألعن من ان تكتم اوجـاعك يا رجل خنقني الصمت وقتلني التستر . منذ شهرين وأنا أعيش دنيا غير دنيا كاتماً ما أخبرتني به . أقلّبه على ألف وجه فيقلّبني مثل فروج على نار جهنم !

كنت جالساً أجمع وأطرح مصروف البيت لا علم ولا خبر . . يا غافلا لك الله . . حتى جاءتني تقول يا رضوان . . الى متى ؟! قلت: خيراً ان شاء الله يا فدوى . ؟ علمي علمك ! قالت يا رضوان لا طويلة ولا قصيرة . . عمرنا شحاذة . . والاولاد يكبرون بين الموت والحياة . . والغلاء ذبحنا . . يعني باختصار أريد ان اشتغل .

مال نحوي فبدا في عينيه التماع غريب موحش . همس كأنه لا يراني :

ـ وما أدراني !؟ في البداية قلت لها : والاولاد يا فدوى ؟ قالت يدبرها الدبار . قلت أسايرها : ستي يدبرها . . . ولكن ما ستشتغلين يا خانم بشهادة الكفاءة التي معك ؟! قالت : لن أشتغل بشهادتي . عجيب ! قلت وماذا إذن . . . . بالفهلوية ؟ قالت مكسورة كما لم أرها يوما : لا يا رضوان . . سأشتغل . نعم سأشتغل .

شبح الاصفرار وجهه ، فاستسلمت مذهولاً ، لم أنبس ولم أحاول . تابع كأنه في غيبوبة :

ـ في البداية لم أرد أن أفهم يا رجل . لو فهمت ما تعنيه لجننت . لكنها لم تترك مجالاً . قالت : يا رضوان . . أعرف ان الموضوع مفاجيء لك وقاس عليك . . لكن جوع الاولاد وعيشتنا قاسية أيضاً . . أردت ان اخبرك حتى لا تقول انني اخونك . قصمتْ ظهري يا رجل . صدقني لو فجعت بأولادي الاربعة لكان أسهل علي . لكني قلت صبِّر نفسك يا رضوان . . خذ واعط معها في الكلام . وفعلاً ، رحت أقول وراحت تقول . طوال الليل ونحن لم ننقطع عن الكلام والبكاء . . تقول أصابتنا مصيبة !! حلت علينا كارثة !! والله لا أدري ؟! غير أنه طلع الصبح وهي تحضنني وتبكي

واحضنها وابكي . يعني ، بلا طول سيرة ، ما في فائدة ! بعدها ، للامـانـة ، فكرت كثيراً . قلت، لنفسي اخبر اهلها ؟ لكن اهلها لا يعترفون بها أصلاً لانها احبتني وهربت معي ! أقول لأصحابي ؟ يعني وماذا سيفعلون سوى تناقل حكايتي ! حتى طلاقها بلا طعم ! أين سأرمي اربعـة أولاد ؟ ومن أين لي بمهر الثانية ؟! وما أدراك كيف تكون ؟ لا أخفيك . . فكرت بقتلها ! للحظة فكرت ، ثم ضحكت من جنـــوني . ما ذنب الاولاد لأرمي نفسي في السجن وارميهم في الشارع ؟ وما ذنبها لتموت مظلومة . . اي نعم مظلومة . . لانها ، يشهد الله ، كانت معي طوال عشرتنا مثل ليرة الذهب . . ولولا انها كذلك لما اخبرتني اصلاً !

كان الـزبـد يرغي على فمه ، فمسحه بظاهر كفه . . فيما كنت أغور ، ساكناً ، فيما يقول :

ـ كتمتُ الأمر . قلت غيمة صيف وتمر ! وعدت أحاول معها . تخونينني يا فدوى ! قالت لا يا رضوان . . لا تغلط ! لو احببت غيرك وعـاشرته دون علمك لكنت خنتك فعلاً . لكنه ليس لي في الدنيا غيرك يا رضـوان وانت تعـرف ذلك ! أنا أريد أن اشتغل لنأكل يا رضوان . وعدنا الى نفس الحديث . هي لم تقتنع معي وأنا لم يحملني عقلي . تصور ! قالت وماذا نخسر يا رضوان ؟ أغمض عيني واتخيلك معي . هي ساعة . . ونعيش بعدها مثل الخلق والناس . يا أخي . . هسترتني فكرتها . هدت حيلي . الله يلعن الفقر وعيشته . . . !

كسر البكـاء صوته فتبعثر على زجاج النافذة . حاولت ان أقول شيئاً . . ظل لساني ملتصقاً بفمي . تنحنحت . . فاختنقت اكثر .

كانت بيوت « القسطل » الطينية : تنزلق على الزجاج ، لحظة عاد صوته متهدجاً :

ـ أتعرف ماذا جرى بعد ذلك ؟

انطلق لساني لهوفاً :

ـ وماذا جرى ؟!

فرقع صوت معاون السائق في فم ماء الباص :

ـ يا شباب . . النازل هنا يعجل . . الوقوف ممنوع !

نهض رضوان وبعض الركاب . اعترضته عيناي تسألانه ، فتمتم بما لم أفهمه وسط اللغط ، واسرع نا زلاً . .

اندفعت نحو النافذة ، فرأيته يمضي جوار راكب آخر ، فيما يده تطّوح يمنة ويسرة . . تدق على صدره . . ثم تشير الى رأسه ، في حين اعتقلت الدهشة الراكب الأخر ، كما بدا من خلف النا فذة المغلقة باحكام .

تشرين الاول / ١٩٨٧

الفهرس

* القضية ..... ممدوح عدوان ٧
١ ـ الزيارة ١٦
٢ ـ المقبرة ٢٢
٣ ـ العيون المشرعة ٣٠
٤ ـ الرجل الذي لم يعد أباً ٣٤
٥ ـ رائحة الخطو الثقيل ٤٢
٦ ـ هذه المرّة ٥٠
٧ ـ الصناديق ٥٤
٨ ـ ليّا ٦٠
٩ ـ يا فدوى ٦٨

صدر عن دار الجندي

١ ـ بيت الأرواح (رواية)	ايزابيل الليندي ترجمة: د. سامي الجندي
٢ ـ تصورات العالم في الفكر الاسلامي (دراسات)	د. ابراهيم عاتي
٣ ـ المعتقل (رواية)	ليجسون كاييرا ترجمة: عبد العزيز عروس
٤ ـ الفطيرة الطائرة (رواية للفتيان)	جاني روداري ترجمة: دلال حاتم
٥ ـ تقرير الى غريكو	نيكوس كزانتزاكي ترجمة: ممدوح عدوان
٦ ـ الشمس وأصابع الموتى (شعر)	الشاعر علي الجندي
٧ ـ في البدء كانت الثورة (مسرحية)	د. سامي الجندي

رائحة الخطو الثقيل

ابراهيم صموئيل!. أين كان يختبيء هذا الاسم حتى الآن؟!.

منذ أول أقصوصة قرأتها له ـ في «الموقف الأدبي» أواخر عام ١٩٨٦ على ماأذكر ـ أحسست على الفور أنني حيال موهبة أكيدة.

كنت أسمع باسمه لأوّل مرّة، وقد كتبتُ عن قصّته في المجلّة نفسها معجباً، وحين تعرّفت إليه شخصياً فيا بعد فوجئت أنه سوري ـ وليس مصرياً كما ظننت أول الأمر ـ وأنه أكبر في السنّ مما تصوّرت. ثم قرأت له في «الإسبوع الأدبي» أقصوصة أخرى أكّدت لي موهبته للمرة الثانية، ثم قرأت هذه المجموعة مخطوطةً، وعندها كان لابدّ أن أسأله مستغرباً: أين كنت مختبئاً ياابراهيم حتى الآن؟. إنك تكتب القصة القصيرة بإحساس متميّز جديد ومؤثّر، فلماذا انتظرت كل هذه السنين قبل أن تنشط للكتابةِ والنشر؟.

ليس مهمّاً أن أعيد إجابته هنا بالتفصيل. المهم أنها أكّدت لي أصالة موهبته كقصاص، وكانسان أيضاً. إنسان متواضع، ذكي، بسيط غير مستعجل الشهرة على الاطلاق، وأن حياته الشخصيّة بحدّ ذاتها قصّة معاناة إنسانية رائعة جديرة أن تكتب، وتمدّه بالالهام طويلاً.

كثيرون في هذه الأيام من يكتبون أوّلاً ثم يعيشون.. أما ابراهيم صموئيل فلقد فضّل أن يعيش أوّلاً وبعدها يكتب.. وهكذا يكون لديه فعلاً مايقوله..

شوقي بغدادي

توزيع دار الأهالي
السعر ٧٥ ل.س